AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01213 1417

هدية لطلاب الحضور
مكتبة الجامعة الإسلامية
مكتب التوكيل
المدينة المنورة
٥٤/١١/٢٥

صور إسلامية

BP
75.2
M36
H

الحلقة الثالثة

عبد الحميد المشهدي

الناشر
دار الكتب الأهلية
ميدان الأوبرا - مصر - ت: ٤٩٥٦١

٢١٩
ص.٤٣

26560

من سورة التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين
كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ۞ إذ يقول
لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ۞ فأنزل الله
سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ۞ وجعل
كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي
العليا ۞ والله عزيز حكيم ۞ انفروا خفافا
وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم
في سبيل الله ۞ ذلكم خير لكم إن
كنتم تعلمون

مقدمة الجزء الثالث

بقلم المجاهد الصادق فضيلة الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أدركت الأمة الاسلامية من أول يوم : أن حياة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم . وسيرته هى السراج المنير الذى تهتدى به إذا التبست أمامها المسالك ، واشتبهت معالم الطريق : وفقهت فى ذلك الآية الكريمة : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » . .

فعكفت على هذه السيرة الزكية ، تأليفا وتدوينا ، وتعرفا ومدارسة ، حتى لم تدع صغيرة ولا كبيرة من حياته صلى الله عليه وسلم الطيبة إلا أحصتها ، وزخرت المكتبة الأسلامية بآلاف المجلدات مما كتب فى كل عصر عن النبى العظيم صلى الله عليه وسلم .

وكان على أهل كل عصر أن يكتبوا لعصرهم . وأن يخاطبوا الناس فيه . . .

وقد أدى السابقون واجبهم فى ذلك ، وكان لا بد للمؤلفين فى هذا العصر من أن يجددوا هذه المكتبة الزاخرة وأن يعرضوا دررها وجواهرها على الناس بلغة عصرهم .

وقد وفق فى ذلك الكاتب القدير الأستاذ عبد الحميد المشهدى أيما توفيق . إذ تناول السيرة النبوية المطهرة والتاريخ الاسلامى بهذا الأسلوب القوى الطريف الممتع حقا فى كتابه هذا « صور إسلامية » .

* * *

ولم تكن الانسانية فى حاجة إلى من يهديها سواء السبيل ، ويأخذ بيدها إلى مافيه خير الناس وصلاحهم كما هى فى حاجة إلى ذلك الآن . . . ولن تستطيع المؤتمرات السياسية ، ولا اللجان الادارية ولا الاتفاقات الاقتصادية — أن تسوق للناس السعادة والطمأنينة وحدها — مادامت القلوب والنفوس لم تشرق من جديد بأضواء المثل العليا ، والمشاعر الفاضلة ، ولن نجد هذه المعانى إلا فى تلك السيرة المطهرة .

* * *

جاء رسول الله « محمد » صلى الله عليه وسلم يعلن فى الناس أنه يقص عليهم من نبأ نوح ، ويعود بهم إلى ملة إبراهيم ، ويدعوهم إلى توراة موسى ، ويصدق إنجيل عيسى ، ويتمم الله به تلك الشرائع كلها ويسجلها فى « القرآن الخالد » (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

ودعا رسول الله إلى هذا الحق المبين فى وضوح وقوة وصدق ويقين وهتف فى مسمع الدهر ، وصاح فى أذن الدنيا : « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »

* * *

لقد جاء محمد بالحق فماذا بعد الحق إلا الضلال . . ؟ !

جاء « بالربانية » التى تصل الانسانية بالله تبارك وتعالى ، وترفعها إلى الملأ الأعلى ، وتغمرها بأقدس معانى الايمان الكامل ، والطمأنينة السابغة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

وجاء ... « بالانسانية الفاضلة » التى تجعل الانسان سيد نفسه وسيد غيره ، وخليفة الله فى أرضه ، وأمينه على كونه ، خلق الله غلافه بيده ونفخ فيه من روحه وكرمه وفضله على كثير من خلقه ، وسخر له مافى السموات ومافى الأرض جميعا ، وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء كلها ، وكان فضل الله عليه عظيما :

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وجاء « بالعالمية » التى تعلن الأخوة بين بنى البشر ، وتنادى

أن لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل ، فلا جنس ولا لون ، ولا دم ولا نسب ، ولكن مؤمن وكافر ، وعامل وخامل ، وصالح وفاسد : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » .

« يأيها الذين آمنوا اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » .

وجاء بعد ذلك كله : « بقول فصل وحكم عدل » يحل المعضلات ، ويوضح المشكلات ، ويداوى العلل والآفات ، فى كلمات قصار جوامع تحت الدواء الصالح والعلاج النافع ، وحسبك بتوجيه يتناول مشكلات العالم الأساسية ، فيحلها فى ثلاثين كلمة لا ثلاثين كتابا ، فيعالج مشكلة الحكم بثمانى كلمات هى قوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله » ، يقرر بها حق الأمة فى الشورى ، ويثبت بها هيبة الحاكم فى النفوس ، وحزمه فى التنفيذ

ويعالج مشكلة الأسرة فى ثمان أخرى هى قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » فيقرر المساواة فى الطبيعة الانسانية ، ويحدد الحقوق والواجبات فى الحياة الأسرية ،

ويعالج مشكلة الطبقة والثروة فى أربع عشرة كلمة ، سبع للناس عامة « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . وسبع للحاكم خاصة . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »

* * *

هـذا بعض ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ودعا إليه وجاهد فى سبيله . ولقد كان صلى الله عليه وسلم الصورة العملية الماثلة الصادقة فى إنفاذ مادعا إليه فكان خلقه القرآن : —

كان « ربانيا » يقطع الليل تسبيحا وقرآنا ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين . . « يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا » .

وكان « إنسانيا » سمت نفسه إلى أعلى مراتب السمو الكريم حتى خاطبه ربه فقال : « وإنك لعلى خلق عظيم . . .

وكان « عالميا » انفسح صدره وشرعه حتى كان رحمة الله للعالمين . .

وكان « عمليا » حتى قال والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها

* * *

فاذا كان ساسة العالم . وقادة الشعوب يريدون حقا أن يضمنوا لها السلام الدائم والأمن الشامل الكامل فلن يجدوا ذلك فى المؤتمرات الدولية ، ولكن فى طوايا النفوس الانسانية ، ولن يشفى

لهم هـذه النفوس من دائها إلا هذا العذب البرود من سؤر النبي صلى الله عليه وسلم ...

فالى العذب الفرات أيها الظامئون ، وإلى السـلام والأمن أيها الخائفون ...

* * *

من عجيب أمر الاسلام أنه مامن شريعة فى الأرض أقرت السلام كما أقره هذا الاسلام :

فاسمه من السلام ، وشـعار أهله وتحيتهم سلام ، وختام صلاتهم سلام ، ومن مناسكه فى حجه السلام ، وقد نزل كتابه في موكب تحف به ملائـكة السلام : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر »

* * *

فألى الذين يريدون السلام حقا نوجه القول أن يتجهوا إلى نبي الاسلام وكتاب الاسلام : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ...

ربيع الآخر سنة ١٣٦٤ هـ

حسن البنا

جفنة الدم

تضم هذه الصورة وصفا لما
كانت عليه الحالة خارج دار
الندوة وداخلها ، يوم اجتمعت
قريش للتآمر على حياة
رسول الله صلى الله عليه وسلم

واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو
يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر
الله والله خير الماكرين (قرآن كريم)

هؤلاء أشياخ قريش فى طريقهم إلى دار الندوة مطأطىء الرؤوس لثقل ما تحمل من هموم وكثره مايمر بها من خواطر، وهؤلاء شباب بنى عبد شمس ونوفل ومخزوم يؤلفون حلقات متناثرة قبالة الدار يتناقشون — فى حدة — حول ماتوافد الأشياخ لأجله وهذه نوافذ الدور المحيطة بالمكان المرموق تشرف منها وجوه مسعدة فامتزج فيها الجمال المقبل بالوجل المدبر ، وحارت فيها عيون تلاقى فيها الصفاء الناعس بالحيرة المذعورة ، وهذا فضول الطفولة يدع الذرارى شاخصة هنا وهناك حول هذه الحلقات تتسمع وإن لم تفهم وتمعن النظر وإن لم تع ، حتى إذا هوت كف أحدهم على قفا زميله دعابة له أو قصاصا انتظمت للجميع حلقة مستديرة لمشاهدة الأكف الصغيرة تتناوب الضرب وتتبادل التجريح . وتتجاذب التمائم ، معركة لم يفضها إلا ترنح سكير يهرف بما لا يعرف ، ويغنى بما لا يكاد يبين ، فهمس أحدهم فى أذنه قائلا : سنكفيك أمره

فتراجع المخمور إلى الوراء ثم انثنى إلى الأمام ثم مسح على شاربه

وعثنونه (١) وجحظ فى وجه محدثه وقال وهو يهتز فى شبه اغفاءة من يكنه ياهذا ؟

الشاب — ابن أبى كبشة (٢) ذلك الذى ينفر الناس من الخمر

السكران — مترنحا — مسكين أعذروه فانه لم يذقها . . .

وحق هذه الآلهة لو شرب محمد قدحا واحدا منها ، لباع رسالته بالثانى

ثم اهتز يمنة ويسرة والأطفال تداعبه بجذب إزاره ، وهو يسبهم ويخوفهم ثم شخص إلى الواقفين وقال :

دعوه ينفر الناس من الخمر ، لينفروا منها ويعافوها لتكثر فترخص ، فأظل أشرب منها وحدى حتى أسقط عند دنانها إغماء . .

ثم مضى وهو يترنم

يحسو على ذكراك ياهبل ساقى المدام ويطرب الثمل

لو كان أحمد ذاق نشوتها ما كان فيه بغيرها شغل

ضحك الشبان لهذا التخلص الطريف ، وبيناهم ينهرون الأطفال القائمين على مناوشته وإذا بشالوم المرابى المعروف بمكة

ينظر يمنة ويسرة كأنه يسائل نفسه عن سر هذا الزحام حول دار الندوة ، ولما لم تسعفه فراسته توقف عن المسير وغرس عكازته فى الرمال وأسند ذقنه على طرفها ثم راح يتساءل :

---

(١) العثنون مؤخر الذقن (٢) كنية كانت قريش تطلقها على رسول الله سخرية وأبو كبشة زوج حليمة السعدية مرضع رسول الله

— ما هذا الملأ من قريش فى مثل هذه الحال

أحدهم — إنهم يأتمرون بصاحبك محمد بن عبد الله يدعو إلى القرض الحسن ويعلنها حربا ضروسا على التعامل بالربا ، وينذر المتعاملين بنار الجحيم

شالوم — ساخرا — شفقة بهذا الرجل فان بذهنه دخلا ، وإلا فأين المال من يد أصحابه ، وليس فيهم إلا فتى مفتون . وعبد آبق ، وشيخ مأفون ، وجلهم فقير معدم ، ولو طعموا يوما لذة المال لأنستهم حلاوته عذاب الجحيم . . ولم يقطع على الشيخ اليهودى حديثه ، إلا دبيب كاهنة جاءت فى ثيابها المرقشة تحملها هراوتها وقد أحاطت عنقها بمجموعة متنافرة من حبات سود خالطتها أزواج الودع وفصلت بينها أرجل الأرانب وخرزات المرجان ، ودست فى شعرها الرمادى الأشعث ريشات بعض الطيور الجارحة واخترمت شحمتى أذنيها شوكتان من سعف النخيل الوليد ، وبعد أن طافت بالبيت واسترحمت صغار الآلهة وقفت قبالة (هبل) تناجيه فى صوت قوى أجش

ويح نفسى ! ! أما لما نزل بقريش من نهاية ؟ ! أما لاصطباركم عليه من حد ؟ ! لقد مزقت دعوة محمد الأواصر ، وقطعت الأرحام ، وتمرد العبيد على السادة ، وشحت القرابين ، وضعف الأقبال على الحج واستهتر الشبان بالكهان ، واستخفوا بالآلهة فألى متى يظلنا هذا البلاء . . ؟ !

وما أتمت الكاهنة عبارتها الأخيرة حتى دمعت عيناها من شدة التأثر ، ثم أصابها سعال متتابع أعقبه بهر وإعياء فألقت بنفسها على عصاها فانثنت تحت ثقلها فتدلت عليها رويداً رويداً حتى أقعت على الأرض ثم راحت تبتهل تارة وتسعل أخرى وتبكى ثالثة ثم غالبت تأثرها وشخصت إلى (هبل) بعينيها الضارعتين المعتكرتين ، فألفت كلبا يبول فى حجره فنهضت مسرعة لتطرده فانكفأت على وجهها ، ثم نهضت من جديد ولكن غريمها كان قد ولى فدنت من هبل على مهل فألفت برمة فيها بقية من لبن فأدركت أن الكلب قد أتى على ما كان فيها ، ثم بال فى مكانه وانصرف ، فحلت منطقتها وراحت تمسح عن إلهها بولة الكلب وهى تبكى فسمعت على مقربة منها من يقول :

رب يبول الكلب فى محرابه ... وينال منه ؟! إنه لذليل

وما إن سمعت ذلك حتى توقفت يدها عن المسح كأنها شلت ثم نظرت خلفها وصاحت يا للآلهة . انه ذريح المجنون . . لو أن قائلها سواك ! ؟ ثم راحت تحدث نفسها : ليت شعرى إذا كان « هبل » قد أغضى عن اللبن كرما وتسامحا فكيف يغضى عن المهانة والأذى ؟

فسمعت مرة أخرى من يقول :

والهون يدفعه الحليم بقوة ... إن لم يكن إلا الدفاع سبيل

فردت عليه تقول :

قبحت مجنوناً .. وكم من حكمة
يلقى بها المجنون وهى مزاح
هبل أباح الكلب شرب لبانه
لكن جناب الرب كيف يباح ؟!

ثم انصرفت حزينة مذعورة تتلفت عن يمين وشمال .

* * *

حلق الليل بجناحيه فى الفضاء . وخيمت الظلمة فى دار الندوة لولا ذبالة مصباح معتكرة تترنح فى يد الرياح ، ظهرت تحت ضوئها الباهت عمائم المشيخة من قريش قد استسلموا لهواجسهم وراحوا بين لاه على الرمل بعود ، وماسح على صفيحة سيفه ، وعابث بشعيرات ذقنه ، وما شق هذا السكون عليهم إلا قدوم الحكم بن هشام فى وضاءة وجهه وامتداد قامته ، والتماع شبابه (١) واسترسال ذؤابتيه على منكبيه ، فتجاوبت أصداء الدار ترحيبا به .. مرحبا وأهلا

عقبة — وناقة ورحلا
أبو البخترى — ومستناخا سهلا

ثم دخل أبو سفيان فتعالت الأصوات

---

(١) لم يسمح فى الجاهلية لمن دون الاربعين بحضور مجالس الشيوخ إلا لابى الحكم بن هشام المعروف بأبى جهل لرجاحة ذهنه بين الجميع

.. وملكا ربحلا

زمعة — يعطى عطاء جزلا

وأشار إلى أبى سفيان

ثم ساد الهدوء فترة من الزمن انشغل فيها بعضهم باصلاح عمامته أوالجمع بين أطراف ثيابه ثم مال أبو سفيان إلى الحكم بن هشام يسائله من هذا الرجل الوضىء الغريب (١) فسمع من الجانب البعيد للدار صوت شج قوى يقول :

— شيخ من نجد وأنا ابن أختكم

الحكم — ابن أخت القوم منهم

الرجل الغريب — رأيتكم حسنة وجوهكم ، طيبة ريحكم ، فأحببت أن أجلس إليكم وأسمع كلامكم فان كرهتم ذلك خرجت عنكم

زمعة — ما دام نجديا لا من مكة فدعوه لا يضركم حضوره معكم

ثم نظر أبو البخترى إلى أبى سفيان وسأله

ما وراءك من أخبار هذا الرجل (٢)

أبوسفيان — يواصل أصحابه الهجرة منذ أكثر من شهرين إلى يثرب . فقد ظعن مصعب بن عمير وعامر بن ربيع وامرأته ليلى بنت أبى حثمه ، وعمار بن ياسر وبلال بن أبى رباح ، وسعد وسالم مولى

---

(١) روى أن إبليس لبس ثياب نجد وتسلل إلى الاجتماع (٢) يقصد محمدا

أبى حذيفة وأم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وعمر بن الخطاب

أصوات — فى فزع — ابن الخطاب ؟!

أبو سفيان — وعياش بن أبى ربيعة فى عشرين راكبا

فوكز زمعة الحكم بن هشام وقال له هذا أخوك لامك يحادنا من أجل محمد ، فاحمر وجه الحكم وطأطأ رأسه خجلا ثم تنفس وقال سأعرف كيف أعود به فى الحديد (١)

أبو سفيان — وواعد هشام بن العاص عمرا على السفر ففطن لهشام قومه وحبسوه عن الهجرة وشاء الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام أن يهاجرا فحبسا فى الحديد ، وأراد أبو صهيب الرومى أن يرحل بدوره فلم يعدم من قال له أتيتنا صعلوكا فقيرا فكثر عندنا مالك ثم تريد أن تخرج به والله لا يكون ذلك أبداً ، ومنعوه ، ولكنه

---

(١) وقد بر الحكم بوعده وسافر مع شقيقه الحرث الى المدينة وأفهما عياشا أن أمه قد نذرت أن لا تغسل جسدها ولا تمشط شعرها . ولا تستظل من شمس حتى تراه . فرق لحال أمه ثم ذهب إلى عمر بن الخطاب يستشيره . فأفهمه عمر أنها خدعة ولكنهما عادا يحدثانه ببر الوالدين وما ورد فى دينه عنهما فضعف ورحل معهما فعدوا عليه فى الطريق وأوثقاه بالحديد وأذاقاه ألوانا من العذاب ثم ألقيا به فى السجن مع هشام بن العاص حتى فتح رسول الله مكة وأطلق سراحه مع بقية المسجونين وروى أن الحرث بن يزيد القرشى كان من أشد الناس قسوة على عياش فى محنته فلما أطلق سراح عياش راح يبحث عن غريمه قبل أن يعلم باسلامه . حتى عثر عليه وقتله فنزلت الآية (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ الخ .)

قد لا يعجز عن الرحيل بفضل ماله . . . . (١)

وقد أعدنا إلى دين قريش من أتباع محمد الحرث بن ربيعة وأبو قيس بن الفاكهة وأبو قيس بن الوليد والعاص بن منبه وعلى ابن أمية .

الأسود — وما خطب أم سلمة هذه تغادينا عند الابطح بالبكاء حتى المساء

أبو سفيان — انه لدليل جديد على قوة سحر هذا الرجل لعقول أصحابه فقد أراد أبو سلمة الهجرة فعلم أهل زوجته بذلك فحالوا بينها وبين صحبته ونازعوا زوجها سلمة الصغير وتجاذبوه بينهما حتى خلعوا يد الطفل المسكين ولكنه غلبهم عليه ، ورحل به ، وخلف زوجته تبكى لوعة هذا الفراق حتى اليوم (٢)

وقصارى القول أن محمدا تهيأ للهجرة ، فقد انتهى الى ، أنه راح منذ أيام يؤاخى بين أصحابه ليرتفق الادنى منهم بالأعلى ، وليستعين الأعلى بالأدنى ، فآخى بين أبى بكر وعمر وبين حمزة وزيد بن حارثه وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف وبين الزبير وابن مسعود وبين عبادة بن الحرث وبلال وبين مصعب وسعد بن أبى وقاص وبين أبى عبيدة بن

---

(١) وقد هاجر فعلا بفضل ماله ولما لقيه رسول الله بالمدينة قال له ربح بيعك ياصهيب ثلاثا فدهش صهيب لهذه المفاجأة وأيقن أن جبريل هو الذى أخبره بذلك وقد نزلت فيه آية (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) (٢) روى أنها ظلت تبكى عاما كاملا فى المكان الذى فارقها فيه زوجها وولدها حتى رق لها أهلها وخلوا سبيلها فلحقت بالمدينة

الجراح وسالم مولى أبى حذيفة وبين سعيد ابن زيد وطلحة بن عبيد الله وبين على وبين نفسه

الحكم — أن أبا سفيان يقص علينا من الأنباء ما ليس بخاف إلا على القليل ممن كانوا خارج مكة لبعض شؤونهم ، وإنى لأرى أن هجرة محمد على وشك الوقوع ، وإذا تم له ذلك فانها قد تكون باب نصر لدعوته ، وان الخوف على دين قريش ليس من هجرته بقدر ما هى من هجرة دعوته ، فقد لاتعدم خارج مكة آذانا وقلوبا لاسيما بين هؤلاء الذين يجاورون تعاليم أصحاب الكنائس والبيع (١) وهى ديانات قريبة الشبه بما يقوله محمد ، بل قد لا يعدم أنصارا من اليهود والنصارى أنفسهم ، وقد يلتجىء إليه بعض القبائل لترات بينها وبين غيرها ، فيجعل محمد من شتاتها جمعا . ومن ضعفها قوة . والا فانظروا كيف جعل من مثل عمر بن الخطاب عدوا لقريش يتحدى أبناء عمومته وخؤولته حين هجرته (٢) ويدعو قريشا — على ملأ — الى النزال يتهدد به من حاول منعه عن الهجرة ، وكيف طابت الهجرة لأبى سلمة دون زوجته ونازع أهلها ولده حتى خلعت راحته ، وكيف عرض صهيب الرومى جل ماله

---

(١) جمع بيعة وهى معبد اليهود

(٢) عند ما أراد عمر الهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهما ، واختصر حربته ومضى صوب الكعبة والملأ من قريش فى فنائها . فطاف وصلى ثم قال شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس . من أراد أن تثكله أمه أو يتيم ولده أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى . فما تبعه أحد

على مانعيه من الهجرة يساومهم على اطلاق حريته ، رغم ما عرف من شحه ولجاجته ، فاذا تمت له الهجرة فانا سوف لا نأمنه فى الوثوب علينا بمن قد تبعه فيسلبنا سدانتنا وسقايتنا ورفادتنا وتسقط سيادتنا على العرب ويكرهنا على دينه دون ديانة الآباء والجدود ، فانظروا الى الموقف بعين الجد والحزم قبل أن يخرج زمام الأمر من أيدينا

أبو البخترى — احبسوه فى الحديد واغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب اشباهه من الشعراء حتى يصيبه ما أصابهم من الموت

الشيخ النجدى (١) — لا والله ما هذا برأى والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه فيثبون عليكم وينتزعونه من أيديكم ثم يكاثرونكم حتى يغلبوكم على أمركم فانظروا رأيا غيره

الأسود بن ربيعة — نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فاذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب

الشيخ النجدى — والله ماهذا برأى ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يزعم أنه يأتيه من السماء والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل بحى من أحياء العرب فيغلب عليهم بحسن حديثه حتى يبايعوه ، ثم يسير إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذوا أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيا آخر .

---

(١) هو إبليس قد تزيا بزى شيخ نجدى كما تقدم

الحكم بن هشام — والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد

أصوات — وما هو يا أبا الحكم

الحكم — الرأى أن تأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا حسيبا فى قومه نسيبا ، ثم يعطى كل منهم سيفا صارما ثم يغدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ويتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فيرضون فيه بالديه

أصوات مرحى مرحى ...

الشيخ النجدى — القول ما قال هذا الرجل . . . هذا هو الرأى ولا أرى غيره ، وهذه جفنة من الدم فلنغمس يدنا فيها كعهد وميثاق على القيام بتنفيذ ما قال أبو الحكم فوضعوا يدهم فى الجفنة وبينما هم كذلك ، واذا بوجه عقبة بن أبى معيط يحتقن ثم يتفصد بالعرق ثم إذا به يصيح ادركونى أغيثونى فقد لدغت من عقرب : . . فاذا بالشيخ النجدى يخطف المصباح ويدنى ذبالته من موضع اللدغه وعقبة يتأوه والنجدى يدفع الدخان بفمه ويقول : يالها من لدغة كاوية .. لقد قاوم وقاوم حتى إذا اشتد به الألم انطلق مستغيثا . ابحثوا عن اللعينة واقتلوها وبينما هم يبحثون عنها هنا وهناك إذا بعكاشة (١) تسقط على قفا الحكم بن هشام من بين أعشاش العنكبوت المخيم فى سقف

(١) حشرة ذات أرجل كثيرة تسكن دائماً نسيج العنكبوت

الدار فانزعج وراح يضرب صدغيه وقفاه وودجيه (١) براحتين ملوثتين بالدم ظنا منه انها عقرب أخرى فتضاحك القوم لمنظره

واستلقى النضر على قفاه من الضحك حتى اضطجع الى الحائط ثم اعتدل فى سرعة خاطفة وراح يتلمس شيئا فى ظهره وهو ممتقع . ولعله ظن ما ظن الحكم ثم تبين أنها شوكة نخل مدببة اضطجع عليها فوخزته فاضطرب فقال الشيخ النجدى

يظهر أن محمدا قد أطلق علينا سحره

الحكم — سنكفيكه وسحره معا . . .

* * *

ولو أن ناظرا وقف قبالة الغار فى تلك الليلة الراجفة ثم ألقى بنظرة فى جوفه لالفى جريحين يعانيان أوصاب السير وآلام القروح قد لفهما الليل بردائه واحتضنتهما الوحشة بجناحيها . ؛ ثم سمع فى سكون هذه الوحشة صوت ثوب يتمزق ، ولم يكن إلا رداء أبى بكر يتخذ منه ضمادات لجراحات قدم الرسول حتى إذا سكنت آلامه ، وهدأت أنفاسه ، توسد فخذ صاحبه تلبية لرغبته . واشباعا لمحبته

أما الجريح الثانى . فقد أخذ يجالد آلام لدغة أصابت عقبه ، حتى لا يقطع على رسول الله نومه ، وظل يعانى ويقاوم حتى استيقظ فألفاه عليه السلام بلا ثوب فسأله

---

(١) العرقان الكبيران اللذان يقومان عن يمين العنق وشماله .

أين ثوبك يا أبا بكر

— سددت بمزقه شقوق الغار

— ولماذا تورمت ساقك

— نفد ثوبى و بقى شق فسددته بعقبي حتى إذا كان فيه شيء نزل بى قبلك فلدغتنى حية

— هلا أخبرتنى

— كرهت أن أوقظك

— فمسح الرسول بلعابه على عقبه وساقه ، فسكنت آلامه وهبط تورمه وعادت قدمه سيرتها الأولى

— ثم قال

— اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة

* * *

وجاء عكرمة بن أبى جهل خائر القوى مبهور الأنفاس وأخذ يتحدث الى أبى سفيان بما لم يسمعه أحد لولا صرخة بدت من أبى سفيان تقول

ابن أبى طالب ؟! وكيف اجترأ هذا الحدث أن يدخل الى فراش محمد وسيوف قريش تغشاه فى الخارج يالها من جرأة عاتية وخدعة قد أجازها عليكم هذا الغلام وأين كنتم ساعة خروجه

عكرمة — لقد هممنا أن نتسور عليه داره فصاحت امرأة من الدار المجاورة فى وجوهنا فتراجعنا وسمعت من يقول انها لسبة فى العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمنا ثم قال أمية لانريد أن نفتك به إلا فى ضوء الفجر ليعلم بنو عبد مناف أن لا قبل لهم بحرب قاتليه

أبو سفيان — ثم ماذا

عكرمة — والله ما ندرى بعد ذلك كيف غلبنا النعاس (١) فلم نشعر بخروجه بل وبالتراب عفر به رؤوس الجميع

أبو سفيان — وماذا صنعتم بابن أبى طالب

عكرمة — ضربناه ضربا موجعا ثم حاولنا أن نتعرف منه مكان ابن عمه فلم نفلح فوضعناه فى الحديد وحبسناه فى المسجد حتى الآن.

الحكم — يا للدهانة ! أرجل واحد يغافل مائة رجل حول بابه يا لقريش .. نادوا فى كل مكان من جاء بمحمد أو صاحبه قتيلين أو أسيرين فله مائتا بعير

تجابت أنحاء مكة باصداء هذا النداء وتناقلت الشفاه إلى كل مكان هذه الأنباء ، فكان الناظر إلى مكة غداة هذا اليوم يراها كأنها تتأهب لعدو قادم ، فهذا غبار بعيد ينعقد فى أعقاب فارس ينهب

---

(١) روى أنه خرج وهم نيام وكان يتلو قوله تعالى يس والقرآن الحكيم — إلى قوله تعالى — فأغشيناهم فهم لا يبصرون

الأرض بجواده فى طريق اليمن ، وهذا آخر قد اختصر (١) حربته واستحث نجيبته (٢) واندفع بها صوب (جدة) والناس تلوح بيديها تشجيعا له ، وهو سابح فى بحر أمانيه بالمائتى ناقة وهذان شابان ناهدان يحدث أحدهما الآخر فى خفة وجذل عما جعلته قريش ثمنا لاحضار الصاحبين حيين أو ميتين . ففكر هذا الآخر ثم فكر ثم فرك يداً بأخرى وهو جذلان ثم وكز صاحبه مازحا وولى إلى مربط فرسه وهو يقول له ، لك عندى منها خمس لو ظفرت بهذا الجعل الثمين ، وهذه إمرأة قد اعتجرت عقالا (٣) وتمنطقت سيفا وقاد لها عبدها فى طريق المدينة جواداً لاتكاد سنابكه(٤) تلمس الأرض خفة ورشاقة وقد التف حولها بعض أهلها وهى تقسم لهم فى عناد الرجال ، أنها لن تعود إلا وفى ركابها زمام الرجلين مكبلين بالحديد

وهذا أبو سفيان بن حرب يملأ أفنية مكة غدوا ورواحا يأمر وينهى ويشير ويلوح ثم لا يكاد يقف حتى تراه سابحا بعينيه فى الفضاء أو مغمضا مطرقا إلى الأرض ولعله كان يستعرض أمام ذهنه قوافل التجارة إلى الشام وقد قطعت عليها قوة المسلمين الطريق فبارت تجارة قريش وتعرضت مكة لمجاعة مهلكة .: فيفتح عينيه منزعجا ويهز رأسه هزات سريعة كأنه يفيق من حلم ثقيل ثم لا يلبث أن يسير

---

(١) وضعها فى خاصرته (٢) ناقته الذلول (٣) أدارت على رأسها عقالا
(٤) حوافره

هنا وهناك على غير هدى يسأل الغادى والرائح عما وراءهم من نباء البحث عن الصاحبين

وسمع أبو بكر وقع أقدام على مقربة من الغار فنظر إلى رسول الله ثم التصق به كمن يحميه من موت محقق ورسول الله مستغرق فى تلاوته وكلما دنا وقع القادمين ازداد التصاقه برسول الله وهو يبكى فقال له النبى

— مايبكيك يا أبا بكر ؟

— ما على نفسى أبكى ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره يارسول الله

— والذى بعثنى بالحق نبيا لايدخل الجنة مبغضك ولو كان عمله عمل سبعين نبيا

ثم بدأ أبو بكر يتنحى عن رسول الله رويدا ، وتهدأ أنفاسه ويقر روعه حين غلبت وسوسة الرمال فى حوافر قطيع من الغنم ، وعلا ثغاؤها (١) المتقطع على كل صدى آخر ، وظن أن القادمين ليسوا من قريش ، ولكنه لم يكد يهنأ بطمأنينته طويلا حتى سمع من يقول لآخر

— عم صباحا يا عماه

— عم صباحا وخيلا رباحا

---

(١) الثغاء صوت الغنم

— ألم تشم (١) فى طريقك رجلين أحدهما ربعة (٢) وضىء ، والثانى نحيل قمىء (٣)

— قد يكونان بهذا الغار وإن لم أر أحداً أمه (٤)

— سمع أبو بكر هذا الحديث ، فاستحالت مسامه آذانا مرهفة ، وأخذت جسمه قشعريرة شديدة أعقبها فيض من العرق ودق قلبه دقات عنيفة حين وثب أمام فوهة الغار أمية بن أبى معيط من القمة المجاورة له وتبعه آخر وآخر . فأيقن أبو بكر أن القوم أدركوهما ، وأن الموت . يجثم على الباب ، فزاد انكماشه وتلاصقه برسول الله ، ونضح جسمه بالعرق غزيراً

— فتنفس رسول الله وقال واصهيباه ولا صهيب لى (٥)

— ثم سمع الحكم وهو يقول من فوق الغار لأمية فى صوت مختنق أجش

— أدخل هذا الغار وافل (٦) جوانبه

— فرد عليه أمية هازئاً

---

(١) ألم تر (٢) متوسط القامة (٣) قصير (٤) بتشديد الميم — تصده

(٥) كان صهيب قد واعد رسول الله على الخروج معه إلى يثرب فلما حان وقت الاختفاء أرسل إليه أبا بكر فوجده يصلى فغادره وعاد إليه فوجده يصلى ثم جاءه الثالثة فوجده كذلك فانصرف عنه فلما أحس رسول الله بما حول الغار من قوة تخيل مايتعرض له أصحابه الآن من تعذيب فذكرهم وذكر صهيبا بصفة خاصة (٦) فتش جوانبه

ومالى أدخل الغار وعليه من آثار الحقب ما هو أبعد من ميلاد محمد وصاحبه

الحكم — ميلاد محمد ! وماذا عندك ؟

فرفع أمية إزاره وراح يبول عند مدخل الغار وهو يحدث الحكم ويقول

عندى شجرة (١) شأنها عجب قد امتدت جذورها بين الجلامد ، واستطالت غصونها حتى سدت فوهة الغار وها هو ذا العنكبوت قد نسج خيوطه بين الأغصان ، وهذه حمامة (٢) وحشية قد وضعت بيضا وأوشك البيض أن يتمخض عن جوازل (٣) فمتى وكيف دخل محمد وصاحبه بطن الغار ؟

— أبو بكر — هل يرانا أمية يارسول الله

— لو كان يرانا ما قال ذلك ، ولما كشف عن سوءته

الحكم — أما والله إنى لأحسبه قريبا وإنه يرانا . ولكن بعض سحره قد أخذ على أبصارنا

أمية — هيا يارفاق إلى طريق آخر للبحث عنهما قبل فوات الوقت فما والله قد طئت قدمه ظهر هذه الآكام

---

(١) يقال إنها شجرة العشار المعروفة فى الصحراء

(٢) يقال إن حمام الحرم من سلالة هاتين الحمامتين (٣) صغار الحمام

أصوات — هيا هيا . . .

تنفس أبو بكر الصعداء وراح ينفصل عن رسول الله رويداً رويداً كما تنفصل أوراق الورد عن بعضها تحت انداء السحر وجرى لعابه قليلا قليلا حتى استطاع أن يحرك لسانه بالحديث وقال

— حمداً لله وشكرا وتكبيرا

— ألله أكبر الله أكبر . والله يارسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا . ولهذا كان حزنى

— لا تحزن إن الله معنا

— ما كان حزنى إلا عليك يارسول الله فما أنا لو قتلت إلا فرد أما أنت فأمة كاملة

— ماظنك باثنين ألله ثالثهما

* * *

سحابة كبرى من التراب تهيم فى ضوء القمر كالسراب ينبعث منها فى سكون الليل ثغاء ورغاء وغمغمة مشافر (١) وحداء عامر وعبد الله (٢) فى نغم كلحن المزاهر. ويستشف تحتها رؤوس تهتز خلال السير على وسوسة الرمل من وقع الخفاف والحوافر. وأمام هذا كله

---

(١) الثغاء صوت الغنم والرغاء صوت الابل (٢) عامر بن فهيره خادم أبى بكر وعبد الله ابن أريقط دليل الصاحبين فى رحلتهما

فتيان يهمس كل منهما فى مسمع الآخر حتى لا يصل حديثهما إلى آذان قريش ، وتنطمس آثار أقدامهما عن عيون القافة (١) ويفوت حداثتهما على المحدسين ثمرة الاستنتاج والتخمين يحمل صدر أحدهما أنباء قريش ، ويحمل عاتق الأخرى زاد الصاحبين الجليلين فقال أحدهما لصاحبه وهو يحاوره

— ومتى جاءكم رسول الله ؟

— أسماء — عند الظهيرة ولم يكن قد جاء قبل ذلك فى مثل هذه الساعة ، فعرف أبو بكر أنه ما قد جاء إلا لأمر خطير ، فأسرع نحوه حافيا يمسح وجهه بطيلسانه واستقبله فى الحجرة الكبرى هاشا مأخوذاً . باشا مرهوبا . فأجلسه رسول الله إلى جوار حشيته (٢) وظل مطرقا . فأطرق أبو بكر لأطراقه ، ولعل رسول الله كان يستعرض أمام ذهنه الصعاب التى تنتظره ، وآماله الكبرى فى التغلب عليها . ولعل أبا بكر لم يكن يملأ رأسه إلا الشىء الذى طالما حدث رسول الله عنه ، وأنه للخلاص أمر لا بد منه ، ثم اعتدلت قامة الرسول ، فراح أبو بكر ينظر إليه بعينيه الدقيقتين وكله آذان ويقظة — يرقب ماعساه يتحدث به الرسول حتى قال له :

— أخرج من عندك ياأبا بكر ، فقال له أبو بكر هما بنتاى يارسول الله

---

(١) قصاص الاثر (٢) مقعد لين

فسكت الرسول رضا واطمئناناً وزاد الموقف أبا بكر شغفا وحناناً . ثم قال الرسول :

— إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة

فهزت رعشة الفرح جسم الصديق ، وراح يبكى فرحا وهو يقول .. الصحبة الصحبة يانبى الله بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد أعددت لها والله العدة ، وهاتان راحلتان قد أعددتهما لهذا اليوم العظيم

رسول الله — بل بالثمن . . . الصحبة الصحبة ياأبا بكر

فنسى أبو بكر عند ذلك أناته وظل يغدو هنا ويروح هناك يعد دراهمه ويجمع ماخف وغلى من مقتنياته ، وعائشة تجرى خلفه وتساهم فى كل هذا بنصيب المقلد يحكى ما يصنع أمامها وأبو بكر ينظر إليها بعينين ملؤهما الأسى لفراقها وأخواتها . واللهفة المحترقه إلى صحبة الرسول ولا يلبث بين الفينة والأخرى يمسح على ظهرها ، ويداعبها وهو فى طريقه إلى إعداد ما يراه ضروريا للرحيل

عبد الله بن أبى بكر (١) — ولماذا يهاجر أبو بكر ويتركنا وحدنا

أسماء — لأن قريشاً تريد قتل رسول الله وأبى بكر معه

---

(١) كان رضى الله عنه إذ ذاك صغير السن ، ولكنه يعى مايقال ولذلك كان يحمل لأبى بكر كل يوم ما يقال فى نوادى قريش ، ولعل فى حديثه مايدل على حداثته ووعيه فى الوقت نفسه

عبد الله — قتل رسول الله وأبى بكر ؟! قبحهم الله . . وماذا يحمل عامر بن فهيرة ؟

أسماء — أربعة آلاف درهم (١) سيحملها أبو بكر معه إلى مهجره وهى كل ماله

عبد الله — وهل يحمل أبو بكر كل ماله معه ثم يدعنا عالة على الناس

أسماء — وان هذا فى سبيل الله لهين ، فلنأخذ حظنا من الحرمان إذا كان لابد منه كبعض المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق ، على انى علمت أن رسول الله قد استبقى عليا بمكة حتى يؤدى الأمانات الى أهلها ثم يصطحب الفواطم الى يثرب وسنكون فى معيتهن

عبد الله - ومن يكن ولا أعرف منهن إلا بنت رسول الله

أسماء — وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ، وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت عتبه وفاطمة أم على ثم عادت أسماء تقول

وعند انتصاف الليل نهض رسول الله قبالة الخوخة الخلفية لباب أبى بكر وأخذ يتلو قوله تعالى (رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) ثم خرج وصاحبه

---

(١) كانت ثروة أبى بكر وقت إسلامه أربعين ألف درهم وقيل دينار ، فبلغت عند هجرته مع الرسول أربعة آلاف فقط

وامعنا فى الظلام ، وعيوننا تودعهما . وأفئدتنا تطوف حولهما وقلوبنا تدق دقا سريعا

عبد الله — كم ليلة خلت الى الآن على الصاحبين فى الغار

أسماء — ليلتان وهذه هى الثالثة .

دار هذا الحديث بين عبد الله وأخته أسماء فى الطريق بين المنزل والغار ، وكان عامر بن فهيرة وعبد الله بن اريقط كلما سمعا صوت أحدهما يكاد يرتفع على ماحولهما ضربا الأرض بعصاهما إيهاما وتخويفا للشياه أو ارجاعا للشوارد الى أحضان القطيع وعلا صوتهما بالحداء فتردد الجبال أصداءه وهما يهزجان .

سيرى خلاك الذم سيرى فى غـــرة القمر المنير
ودعى لرب البيت ما ودعت من أهل وخير
والبيت فى أكناف أعلا م كحـــراس الدهور
وضعت يدا ابرام ما وضعته فى تلك الصخور
فاذا العروبة من جلا ل البيت فى حصن خطير
ما نحن الا قبلة الـــدنيا وسادات العصور
سيرى خلاك الذم سيرى

ولا يكاد ينتهى عامر بن فهيره من أهزوجته حتى يرد عليه عبد الله هازجا :

لغنمت يا غنمى الســـلا مة فى الرواح وفى البكور

فلربه فضـــلا خصصـــت به من المولى القدير
عـــفى على أثريهما فى الصخر والرمل العفير
قفى على أثريهمـــا قفى وسيرى ثم سيرى

سمع الصاحبان الجلبة التى اعتاداها كل ليلة فعرفا أنه ركب ولدى أبى بكر وقد جاءا الليلة بمطايا السفر فرحب بهما أبو بكر وباركهما رفيقه ثم لاحظ أبو بكر على ابنته وجوما لم يعهده من قبل فسألها ما وراءك يا أسماء

— استيقظت اليوم على طرق عنيف ، فاذا بى امام الحكم بن هشام وخلفه رهط من قريش وإذا به يبادرنى

— أين ابن أبى قحافة

— لا أدرى أين ذهب

— وأين صاحبه

— ليس هذا بيته حتى تسألنى عنه فى مثل هذه الساعة ، فرفع يده ولطمنى فطرح قرطى (١) وأسال الدم من شحمة أذنى

رسول الله — ان الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته

أسماء — ثم وفد بعد ذلك أبو قحافة يتلمس الطريق بعصاه . ويتحسس الباب براحته حتى إذا اجتاز عتبته ، تأبط عكازته وضرب

---

(١) المعروف بالحلق

راحة بأخرى ثم نادانى ، فهرولت اليه وأخذت بيده الى الداخل ووجهه شاخص الى السماء ثم ابتدرنى

ـ كيف حالكم يابنتاه ، والله إنى لأرى أن أبا بكر قد فجعكم بماله مع نفسه

أسماء ـ لا وحقك ياجداه انه قد خلف لنا خيرا كثيرا ، ثم تركته وسارعت إلى رداء فاستودعته خزفا وحصى ثم كورته ووضعته فى الكوة التى كنت تضع فيها دراهمك ثم أخذت بيد الشيخ ووضعتها على الرداء فعركه برفق وقال :

ـ لا بأس يا بنيتى إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن وفيه بلاغ لكم

ـ شكرا لله على السراء والضراء

ـ فابتسم ابو بكر لحيلتها فى ارضاء الشيخ وقال لها ثم ماذا وراءك بعد ذلك

اسماء ـ شاة سليق لفتها التوابل ، وحفتها أقراص البر الغريض وماء من عين زمزم تذكر شاربها بمهد اسماعيل الجد الأول لرسول الله محمد

فابتسم رسول الله وقال :

ـ ذرية بعضها من بعض . . . ليس من أحد أمن على فى أهل ومال من أبى بكر فبكى ابو بكر وقال :

وهل أنا ومالى إلا لك يارسول الله .

ثم شخص الى عبد الله بن أبى بكر وسأله وما أنباء قريش الأخيرة

— ما زال أبو جهل يلح على المنادين بالذهاب كل مذهب ويتردد على أفواه الطريق المؤدية الى اليمن والشام والحبشة والساحل، وما زال يرسل القوافل الى كل جهة ويغريهم بالمائة ناقة التى جعلتها قريش جعلا خالصا لمن يأتى بمحمد أو صاحبه حيا أو ميتا وقد زاد بطش قريش بالمسلمين فراحوا يخرجونهم من بيوتهم وأموالهم ويضعونهم فى فى الحديد ويعذبونهم

رسول الله — صبرا صبرا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون

ثم أطرق رسول الله فسكت الكل لاطراقه ولعله كان يوازن — على ضوء الأنباء الجديدة — بين البقاء فى الغار أياما أخرى وبين الرحيل الى يثرب . ثم ترامت إليه أصوات بعض الديكة من بعد ، فقالت اسماء يكاد الليل أن ينتصف فهب رسول الله واقفا ، فعرف الكل أنها ساعة الرحيل ، فراح ابو بكر يوزع على الراحلين اختصاصهم وأخذ عبد الله بن اريقط (دليل الطريق) بزمام الناقة وأخذ ابو بكر بركابها حتى ركب الرسول ثم قال

— الا أبشرك

ابو بكر — فداك أبى وأمى

رسول الله — ان الله عز وجل يتجلى للخلائق يوم القيامة عامة ويتجلى لك خاصة

ثم قال

اللهم اصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى

ثم تقدمت اسماء الى ناقة أبيها لتودعها الزاد والماء . فلم تجد ما تعلقه به فى مؤخرتها فشقت نطاقها وشدتهما بشق وتمنطقت بالشق الآخر (١) ثم هوت على رأس والدها الحنون تتظاهر باسرار أمر إليه ، ولكنها كانت تستودعه حبها وتبثه وجدها لفراقه ، وابو بكر يتناوبه عاملان كبيران . عامل الحنو إلى الأهل والوطن . وعامل حب الله ورسوله فراحت تغالبه دموعه ويغالبها ، حتى رأى رسول الله يدير زمام ناقته صوب الكعبة وهو يقول

(اللهم انك لاحب أرض الله الى الله وانك لاحب ارض الله الى نفسى ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت) فدنا ابو بكر من اسماء وقال لها

ستلحقيننا مع الفواطم (٢) ثم ركب ناقته وأردف خلفه مولاه

---

(١) ولذلك سميت ذات النطاقين

(٢) روى أن رسول الله بعد أن استقر به الحال فى يثرب أرسل كتابا وخمراً (جمع خمار)

عامر بن فهيره وسارا عن طريق الساحل تضليلا لقريش والنسيم يحمل إلى آذان المودعين ما يتلوه الرسول من قول الله (وكم من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم — ان الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) (١)

وبعيرين وخمسمائة درهم مع زيد بن حارثة وابى رافع الى على بن أبى طالب لاحضار الفواطم ومعهن أسرة أبى بكر

(١) وقد نزلت عليه هاتان الآيتان وهو يجالد حنينه الى مكة عند سفره فراح يتلوها ويكررها

أول العهد بيثرب

تصف هذه الصورة استقبال رسول الله
بالمدينة ورأى اليهود فى هذا الوافد الجديد
ومدى أثره فى حياتهم من نواحيها المختلفة

إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين
كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول
لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله
سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة
الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله
عزيز حكيم . قرآن كريم

جلس الحبر دانيال فى ظل الشجرة المجاورة لمنزله بين مجموعة من بنى قومه ، تلهى بعضهم بلعب الميسر ، وانشغل آخرون بالحديث فى رحلة الصيف إلى الشام ، واشتبك فريق ثالث فى الحديث حول استعداد أهل يثرب لملاقاة النبى محمد والحفاوة به ، ومايمكن أن يؤدى إليه نفوذه من الخطر على شريعة إسرائيل وتجارتها

فكنت ترى الحبر تارة منتصب القامة يستعرض ثوبه ويفليه ، وتارة أخرى مكبا عليه يرتق فتوقه ويدعم خروقه ، وثالثة تنام يده عن الحركة ليستقبل نسمات الضحى تمسح رشح العناء عن جبينه أو ليدلى بدلوه فى المناقشة الدائرة حول قدوم الضيف

ثم احتدت المناقشة ، وارتفعت يد الحبر فى وجه أحدهم مع صوته العالى الاجش ، فسقطت الابرة من يده ، فقام وأقام من حوله فى ذعر باحثا عنها ، فانتقل الموقف من البحث عن ظروف القادم واحتمالاتها الى البحث عن ابرة الحبر التى سقطت فجأة من يده . وهو ينافح عن رأيه

ثم هدأت حدة المناقشة، واستحال المتناقشون الى شبه مجموعة من العجائز تقوست ظهورهم ، وراحوا يبحثون هنا وهناك وراء الابرة المنشودة وداس أحدهم على نعل الحبر وهو يرفع رجله به فانقطع شراكه ، فزاد ذلك فى غضبه وهياجه ، وكاد يشتبك مع غريمه فى معركة ، لولا أن قطع عليهم ضوضاءهم صوت (ميمون) أحد قادتهم قائلا

— كأن الجزع على ابرة ونعل سيلهينا عن البحث فى مستقبل بنى إسرائيل .

الحبر — محتدا — أن نعلا وابرة فى حوزتى ، خير عندى من إسرائيل نفسه فتضاحك الجميع ، ثم قال أحدهم

هذا (مشكم) قد وافا من أحشاء يثرب فلننتظر ما لديه من أنباء القوم وصاحبهم لعل هناك جديدا يمكن الوقوف عليه

فنامت الالسن الثرثارة . وهدأت العواطف المهتاجة . وجلس مشكم فى حراسة النظرات المتقابلة وأخذ يقول :

لازال القوم فى انتظار صاحبهم على أحر من الجمر ، يروحون مع الشمس . ويغدون مع النجوم . ويتلمسون أخباره مع الوافدين . يجمعون على إخراج قومه له من مكة . وهربه من منزله ليلا مع صاحب يقال له أبو بكر . ولكن واحدا من هؤلاء جميعا لم يره فى الطريق المألوف بين مكة ويثرب .

فلا يدرون من أى طريق سيفد إليها . وان كانوا جميعا واثقين بقرب حضوره ، ثقة حرمتهم مزاولة أعمالهم واستراح قيلولتهم . وعجيب كل العجب أن ينزل رجل من نفوس الناس بعد كليم الله موسى ما نزل هذا الرجل من نفوس أصحابه

ميمون — وكيف لا يتم له كل ذلك وله مثل هذا السحر؟! ألم يجمع بين الاوس والخزرج بعد عداء أجيال متعاقبة وسفح دماء غزيرة ؟ ألم يدع الى الايمان بموسى نبيا كليما . وبعيسى وجيها فى الدنيا والآخرة حتى يتخلص من عداء شعب إسرائيل ويتفرغ لمنازلة الأوثان وعبادها المأفونين .

مشكم — وعلام اذن نحن فى مأتم ؟ ؟ ما دامت لنا عقائدنا ولا هناك من يكرهنا على سواها ؟ فنظر إليه (دانيال) بعينى ثعبان وكشر عن نابين زرقاوين وقال :

ومن يدرى أيها الطفل ما ذا يكون منه غدا بعد أن يتخلص من الوثنية والوثنيين ! هل يبقى على تعاليمه أم يتخلص بدوره من شعب إسرائيل . . ولم يعد هناك ما نلجأ إليه بعد أن التأم شمل الاوس والخزرج وقد كان لنا من عدائهم حصن حصين .

ميمون — على أن محمدا إذا كان قد ألف بين الاوس والخزرج فقد فرق بين الولد ووالده والمرء وزوجه ، والا لما أخرجه قومه بعد أن ضاقوا ذرعا به

مشكم — ولكن كيف انتصر عليهم . وفر سالما من يدهم . مع كثرة سوادهم وقلة اتباعه .

ميمون — إذا سمينا الفرار انتصارا . فسم الضعف قوة والليل نهارا !!

الحبر — دعوا الحكم على الموقف الآن حتى نرى الرجل ونتعرف منه سياسته مستقبلا نحو شعب إسرائيل

أصوات — الى الغد إذن الى الغد . . .

انفرط عقد الاجتماع وانصرف كل الى حيث شاء إلا رجلا واحدا خلفوه فى شبه ركوع يبحث عن إبرته العزيزة قبيل القيلولة ، ذلك هو الحبر دانيال ، كأنه قد فض الاجتماع من أجل ذلك

أوى الناس الى منازلهم ساعة القيلولة . وخلا الفضاء الفسيح ممن كانوا يشغلونه فى انتظار الرسول وصاحبه عدا شاؤول اليهودى . فقد فاء الى ظل شجرة مريضة يستروح ظلها تارة ثم يعافه الى ربوة عالية يشرف منها على طريق المدينة . عله يكون أول من تقع عينه على الرجل الذى ملك على أصحابه قلوبهم . وأول من يعلنها لهم فيذهب وحده بحسن الأحدوثة . فتارة تخدعه بعض الهضاب . يظنها ابلا فيتمعنها نشوان فرحا ، وتغريه تارة أخرى تموجات السراب . يتوهمها

قافلة فيجحظ لها جذلان مسرورا . فاذا تأهب لاعلان ذلك تجلت له الحقيقة فيعود الى طبيعته مجهدا من تفاعل نفسه . حتى رأى على بعد شاسع ثلاثة رجال ودليلهم على مطيتين . بينهم رجل يحمل بعض الأوصاف الذى سمعها عن القادم المنتظر . فشهق ثم عاد فسكن ولعله قد رابه أن القادمين محمد وصاحبه . وكاد يعتقد أنهم غير المقصودين بالعناية لولا أنه كلما دنوا منه تحققت لديه علامة جديدة مما سمعه عن وصف رسول الله . فيطفر دم الفرح فى وجهه . ويلتفت يمينا وشمالا فى سرعة خاطفة . ليتأكد خلو المكان ممن عساهم يشاركونه اكتشافه . ثم يعود الى امعانه فى القادمين فيزداد تأكدا . فتبهر أنفاسه ويزداد اضطرابه فنسى ماكان يعلمه عن عددهم وصاح بأعلى صوته يابنى قيلة يا بنى قيلة . .(١) هذا صاحبكم قد جاء . . والله انه هو بعينه وضىء رغم آثار السفر . منبلج الوجه ، فى أشفاره وطف (٢) وفى عينيه دعج (٣)

لم يكد اليهودى يتم نداءه حتى تداعت جموع المسلمين من كل مكان كالجراد انتشارا . والسيل تدافعا . وعلى رأسهم عمر وعثمان وسعد بن معاذ وعبادة بن الصامت وأسيد الحضير وغيرهم من أساطين الصحابة فى عدتهم وسلاحهم . فسلموا على رسول ومن معه وهتفوا مكبرين

---

(١) قيلة الام الاولى للاوس والخزرج (٢) طول (٣) شدة السواد

قال عمر ادخلوها ان شاء الله آمنين

وهز السرور بريدة بن الحصيب (١) فاتخذ من عمامته راية وشدها على رمح وراح يسير أمام ناقة رسول الله . فقال له الرسول

— من أنت

— بريدة بن الحصيب

— برد أمرك يا أبا بكر وصلح . . . وممن أنت

— من اسلم من بنى سهم

— سلمنا وخرج سهمك يا أبا بكر

— ومن أنت

— محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله

— أهذا أنت ؟! أشهد الا اله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . . ودعا قومه للاسلام ثم قال لرسول الله

— تنزل علام يانبى الله

— ان ناقتى هذه مأمورة

— الحمد لله الذى أسلمت بنو سهم طائعين غير مكرهين

نزل ركب رسول الله (بقباء) وحل ضيفا على كلثوم بن الهرم سيد بنى عمرو بن عوف . وظل فى ضيافته أياما بنى فيها مسجد قباء (٢)

---

(١) بضم الحاء وفتح الصاد — كان بريدة قد سمع بما جعلته قريش لمن يأتى برسول الله حيا أو ميتا فخرج مع سبعين من قومه طمعا فى الجعل ثم عاد هو وأصحابه أشد مايكونون إيمانا به

(٢) فنزلت فيه آية — لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه

ثم ركب ناقته واتجه صوب المدينة، فكان الناظر إليها عن بعد يراها وكأنها سابحة فى أمواج من الخلائق متلاطمة، أوسائرة تشق طريقها فى حقول من البشر، فهؤلاء كبار الصحابة فى سيوفهم المشرعة كحرجة متشابكة الأغصان. وهؤلاء مجموعة من محاربى الأحباش يقومون برقصتهم الحربية، وكأنهم وسيوفهم تلمع فى أيديهم تحت التراب الثائر، نجوم تتلألأ فى ظلام الليل، وهذه مجموعة ثالثة تهتف وفى أيديهم سعف النخل وأفنان الزيتون مشرعة تهتز وتتمايل وهم يرددون

الله أكبر هذا سيد العرب الله أكبر أوصانا بخير نبى
الله أكبر يا ابن مطلب خير الجدود وأعلاها ذرى نسب

وهاتيك ربات الخدور قد نبتن كالأزهار فوق الأسطح والشرفات يرددن فى لحن منتظم:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وفى وسط هذه الأهازيج الشادية، ومضت عيون فى وجه رسول الله بالشرر، وضاقت لمقدمه صدور بالغيظ، ودقت على المستقبل قلوب بالرجفة والفزع، وأظلمت الدنيا وسط مهرجان النور فى وجه ثراة يثرب من بنى إسرائيل وطلاب الملك من سادة الأوس والخزرج فآووا إلى منازلهم راجعين، تحمل أرجلهم أجسادا بلا رؤوس!!

أخذت الناقة سبيلها بين مظاهر الفرح ومباهج السرور فى طريق لم تنثن عنه رغم تزاحم الأيدى على زمامها . وتضارب الرغبات لتغيير اتجاهها ، فما تركه يد كلثوم بن الهرم سيد بنى عمرو بن عوف ، إلا فى يد عتبان بن مالك سيد بنى سالم ، وما تخلت عنه يد عتبان إلا لزياد ابن لبيد سيد بنى بياضة ، وما أسلمته يد زياد إلا لسعد بن عبادة سيد بنى ساعدة ، وما يئست منه يد سعد إلا على يد بنى عدى بن النجار ، كل يريد ضيافته وكل يدعوه إلى حيه بين العدة والعدد والثروة والجاه والسلاح ، ورسول الله مشرق البسمة إزاء كل هذه الرغبات الكريمة يصرفها برده العذب اللبق (بارك الله عليكم . . فى كل دور الأنصار خير . . خلوا سبيلها فانها مأمورة) ثم غاضت بسمته فجأة حين سمع صخر بن عوف يقول وهو يغالب غيره على زمام الناقة

فلنحتكم إلى الأزلام . لنعرف أينا أحق بضيافة رسول الله

فغضب رسول الله لذلك وقاطعه قائلا

— لاتحتكموا إلى الأزلام . فانها رجس من عمل الشيطان ، وإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله ورسوله

سارت الناقة غير بعيد عن دار أبى أيوب تخب وسط الزحام المتلاصق وتضع ، ثم عادت أمام هذه الدار وبركت وتجلجلت وازرمت (١) فجاء من خلفها جبار بن صخر ونخسها عساها تغادر

---

(١) تجلجلت وضعت عنقها كله على الارض وأزرمت أخرجت صوتا دون فتح فمها .

مكانها وتبرك أمام داره ، ولكنها لم تتحرك . . ثم قال رسول الله

— أى بيوت أهلنا أقرب ؟

أبو أيوب — دارى هذه . . أتأذن فى أن أرفع إليها رحلك

الرسول — إذهب فهيء لنا مقيلا فالمرء مع رحله

أبو أيوب — يانبى الله قد هيأناه ، فادخلها على بركة الله

الرسول — وهو يدخل — رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، ورددها ثلاثا

جرت كل هذه الأحاديث بين النبى وأصحابه ويكاد لا يسمعها أحد لشدة ما حول رسول الله من ضوضاء الهتافات والتكبير والغناء ، ودخل عليه السلام للمقيل واصداء المدينة تردد مايجرى حول دار أبى أيوب ، وكان أقربها جرسا إلى سمعه عليه السلام . غناء الجوارى فى صوتهن العذب الحنون .

نحن جوارى بنى النجار ياحبذا محمد من جار
يمنع بالليل والنهار بربه من عصبة الفجار
وبالسيوف فى يد الأنصار مصلتة تطيح بالأعمار

ولما طال وقوفهن أشرف رسول الله عليهن من إحدى نوافذ الدار وقال — أتحببنى

فرددن بصوت واحد نعم نعم

فقال — الله يعلم أن قلبي يحبكن

جلس الصحابة قبيل الغروب فى دار سعد بن خيثمة على هيئة دائرة منتظمة تتحدث أساريرهم بالجذل . وتفيض نفوسهم بالسعادة ، فسأل زيد بن الخطاب

— من أى الطرق جاء الرسول ، وما وفد قادم على يثرب إلا وأنكر وجودكم فى طريقه ؟!

فتبسم الصديق ثم قال :

— لقد سلكنا الى يثرب طريق الساحل لأنها غير مطروقة ، على أننا ما سرنا غير بعيد من مكة حتى سمعنا وقع حوافر فرس جامحة . ورسول الله مشغول بقراءته ، فتمكن الخوف منى عليه ، فنبهته الى الخطر القادم ، فقال لى (لا تحزن ان الله معنا) ثم توجه الى السماء وقال (اللهم اكفناه بما شئت) فعثر الفرس ووقع على منخريه . فخر عنه راكباه (١) وأطرق أحدهما طويلا . ثم أنهضاه وركباه من جديد فلم يسر غير بعيد حتى ساخت مقدمتاه الى الركبتين ، فخرا عنه وأطرق أحدهما مرة أخرى . ثم عادا فركباه ولم يكد يقطع إلا خطوات معدودة حتى

---

(١) الاول سراقه بن مالك والثانى غلامه الحبشى المعروف بالقوة والشجاعة ، وسبب اطراقه أنه كان يستشير ازلامه ، وكانت دائما تخرج ضد رغبته فى اللحاق برسول الله طمعا فيما جعلته قريش ثمنا لقتل رسول الله أو اسره ، ولكنه كان يخالف مشورة الازلام طمعا فى الجعل ،

ابتلعت الارض كل قوائمه و تعذر انهاضه ، فنادى يا محمد أنا سراقة بن مالك ، ادع الله لى أن يطلق فرسى فارجع عنك وارد من ورائى ، فدعا له وانطلق فرسه فركبها حتى كان دوننا بقليل وقال :

— إنى لأعلم بعد هذا يا محمد أن أمرك سيظهر فى العالم . وانك ستملك رقاب الناس . فعاهدنى إذا أتيتك يومذاك أن تكرمنى ، فكتبت عهدا بذلك بأمر رسول الله (١) ثم قال له وكيف بك ياسراقة إذا تسورت بسوار كسرى (٢) فقال سراقه : كسرى ؟ كسرى بن هرمز فقال له نعم . فطار لبه من الفرح ، وقال هذا متاعى خذوه معكم وعند الثنية القادمة منيحة من غنمى فاذبحوا وخذوا منها ما شئتم ، فقال له الرسول ، إذا لم ترغب فى الاسلام فلا حاجة بنا الى متاعك ومنيحتك ، اكفنا نفسك وردعنا من وراءك ، فقال لك فى عنق ذلك يا محمد ، وعاد قافلا الى مكة ، دون أن يدركنا أحد بعد ذلك

أصوات — الله أكبر ، الله أكبر

ومال زيد بن الخطاب على اذن زيد بن حارثة يسأله عن سر هذه الوضاءة التى وافى بها ركب رسول الله ، فأجابه

---

(١) احتفظ سراقة بكتاب رسول الله حتى اذا كان الرسول عند (الجعرانة) فى طريقه الى مكة — رفعه إليه فرحب به وقال (اليوم يوم بر وبشر ووفاء)

(٢) صدقت نبوءة الرسول فى هذا وقلده عمر فى عهده سوارى كسرى وقال الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك .

— لقد والله لازمتنا سحابة وفية منذ زايلنا مكة ، حتى وافينا يثرب . ولقيتنا فى الطريق قوافل التجارة بقيادة الزبير وطلحة بن عبيد الله ، فكسوانا جميعا ثيابا بيضا وزودانا بما كنا فى حاجة إليه

أصوات — الله أكبر الله أكبر

رمز الفداء

تضم هذه الصورة قيام على بن أبى طالب
برد الامانات التى كانت عند رسول الله
إلى أصحابها ، وشوقه الملح إلى الهجرة
ثم وصول الاذن له بذلك ورحيله الى
يثرب مع الفواطم وأسرة أبى بكر الصديق

وإذا أبرمت ما أمرتك به فكن
على أهبة الهجرة لله ورسوله بقدوم
كتابي عليك محمد رسول الله

في ضوء مصباح باهت مترنح كأنفاس المريض ، وفي صمت ليل موحش وحشة المقابر، وبين وجيب القلوب ودقاتها السريعة — حدق رسول الله في وجه ابن عمه على طويلا ، ثم ضمه إلى صدره يخفف من حنينه ، ثم همس في أذنه بأمر هجرته ، ويستبقيه بمكة حتى يؤدي عنه ودائعه ، ثم يلحق به مع الفواطم . ثم نضاه عنه واختفى شبحه ، فغاب النور عن عينيه ، ولم يعرف أين ذهب رسول الله بعد أن فارق صدره ، فخفق قلبه إذ ذاك خفقة صعدت به إلى صدره ، وتفصد منها عرقه ودار لها رأسه ، فما عرف قبل الآن وجيب الفراق ، ولا ذاق مرارة الحرمان ، ولا احتمل عبء المسئولية وحيدا ، ثم راح يبحث عن الرسول في زوايا المنزل . حتى إذا لم يجده وقد تملكه البهر والاعياء ، جلس على فراش رسول الله وقد حمل رأسه بين يديه وراح يحدث نفسه . . أحقا أن رسول الله غادر مكة مسقط رأسه ومدرج صباه ، إلى مستقبل مجهول لا يعلم مصيره إلا الله ، وإذا كان كذلك ، فكيف لا أكون بجواره أشاركه هذا المصير ، وأشرب من الكأس التي يشرب منها ، وكيف تطيب لي الحياة بعد رسول الله ، ويحلو لي العيش ؟ ولكن هذه مشيئته ، وهذا ما يجعلني احتمل آلام فراقه

لعل هذا أو بعضه ما كان يدور بخلد على بن أبى طالب وهو جالس على فراش الرسول . يغالب الصبر ويصارع الأسى ، وكان كلما ألحت عليه وحشة الموقف . تردد صدى صوت الرسول فى مسمعه حين ودعه (وإذا أبرمت ما أمرتك به فكن على أهبة الهجرة لله ورسوله بقدوم كتابى عليك)

استشعر على البرد ، فتدثر ببردة الرسول الحضرمية الخضراء فمشى الدفء فى جسده ولعب الكرى بجفنيه ، فاستلقى مجهداً من وطأة التفاعل النفسى، فكانت مارية (١) خادمة الرسول تسمعه عن بعد وهو يهجس بمقالة الرسول له (وإذا أبرمت ما أمرتك به فكن على أهبة الهجرة لله ورسوله بقدوم كتابى عليك

* * *

(من استودع رسول الله أمانة فليوافنى إلى دار خديجة بنت خويلد لتؤدى اليه أمانته) — كلمات أطلقها على سريعة عند الابطح (٢) فاجتمع لها على سرعتها ملأ من قريش. على هيأة دائرة ، يستعيد بعضهم ما قال . ويهزأ البعض الآخر به فى حنق وغيظ ، ولم يسع عليا إلا أن ينحدر من مكانه كسيل جارف حين قال له شيبة بن ربيعة

— وأين صاحبك الحريز على هذه الامانات حتى يؤديها بنفسه

---

(١) المعروفة بام الرباب (٢) مكان معروف بمكة

أمية بن خلف — هازئا أما سمعت هتاف الجنى (١) أرسله الساحر محمد يطوف مكة مغنيا لتضليل قريش عن طريقه

شيبة — وكيف أطلقت قريش العنان لهذا الغرير يسير ويتحدث ويجتمع بالناس . وقد كان بالأمس حبيس المسجد مكلوما موجعا لقاء ماخدع به قريشا (٢)

أمية — دع عنك هذا الغرير ، فقد غلبه صاحبه على عقله واستبقاه ضحية عنه ، فما خدعنا على ، بل خدعنا صاحبه

لم تصل دعوة على الى آذان كل ذوى الامانات ، فصمم على البحث عنهم أداء لحقهم ، فكان السائر فى شوارع مكة غداة ذلك . يرى شابا فارها يحمل على ظهره عباءة حمراء مليئة بشتى الودائع ، فمرة تراه امام شيخ تقدمت به السن يسائله عن نسب شخص الى فخذ من الأفخاذ ، ومرة يستقرىء منزل امرأة عجوز ثاويه ، وثالثة يتابع طفلا فى طريق ملتو بحثا خلف رجل قرأ اسمه على قطعة من حجارة ألفاها فوق عيبة ملابسه ، وهو بين هذا وذاك يسير فى خطى سريعة ، كأنما يلاحق غريما أو يطارد عدوا ، لا يلتفت الى همزات قريش ، ولا يأبه الى سخريتهم به ، ولا يلقى بالا لهؤلاء الأطفال ينشدون وراءه ما أوحى به إليهم بعض السفهاء من قولهم .

---

(١) يقصد ماروى من حديث الجنى الذى كان يهزج بقوله

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتى أم معبد

(٢) يقصد بالخدعة مبيته على فراش رسول الله ليلة التآمر على قتله صلى الله عليه وسلم

مجنون يهرف بالدين مفتون بالحور العين
باللات يمينا والعزى قد خولط عقل المجنون

* * *

لم تكن أيام على فى محبسه وحرمانه ، بأشد مرارة عليه من أيام يقضيها بعيدا عن رسول الله ، وحيدا فى الميدان ، لايحيط به من المسلمين إلا المستضعفون والسجانى والنساء ، ولا يسرى عنه إلا خلوته بربه فى الصلاة يبثه آلامه وشكواه ، وزياراته للفواطم من آل محمد وأبى بكر يواسيهن ويشجعهن ، وتردده على غار حراء يتمثل رسول الله وصاحبه فيه ، ويرسل طرفه إلى الطريق الذى حمله الى مهجره ، لعل أنفه يصيب نسمة من عبيره ، أوعينه تقع على رسول من قبله ، يحمل خطابه الموعود إيذانا له فى اللحاق به ، حتى إذا لم يظفر بشىء من بغيته عاد الى منزله حزينا . كما يعود القائد المهزوم ، أو الوالد بعد أن أسلم وحيده للتراب .

وفى أمسية ألحت الوحشة فيها على ابن أبى طالب وأطال نظره فيها للنجوم كأنه يحملها تحنانه ووجيبه الى الأحباء من سكان يثرب ، ويرسل مع أنسامها زفرات الشوق الملح — إذا به يسمع على بابه دقا رفيقا فدق قلبه وتتابعت أنفاسه . وراح يسائل نفسه : ليت شعرى ؟ أعدو هذا أم حبيب . ولو أنه كان عدوا فما الذى دعاه الى الترفق فى طرق بابى ومايضره لوحطمه على ، إلا إذا كان وافدا خبيثا ؟ ولكن

علام الخبث والخديعة ، ولى بين أظهر القوم شهور عديدة أجوب خلالها . وأطوف أسواقها عيانا . . لم يبق إلا أن يكون وافدا حبيبا

سرت هذه الخواطر سريعة فى رأس على . والطارق يلح فى طلب الأذن له بالدخول ، فحمل مصباحه الذابل المترنح ، وراح يستقبل الطارق ، فاذا به فجأة أمام عبد الله بن أريقط دليل النبى وزيد بن حارثة خادمه . فاحتضنهما معاً . وأغلق عليهما بابه . ثم قدما إليه كتاب رسول الله ووضعا فى حجره صرة مال ، ففضه مسرعا وما وقعت عينه على خاتم الرسول حتى راح يقبله باكياً . وما قرأ بعض سطوره حتى ضمه إلى صدره راحة وسعادة ، ثم نهض من فوره يجمع متاعه . فسقطت الصرة (١) منه دون أن يشعر ، فناولها له عبد الله بن أريقط فقال له خذ ما يكفى منها لتجهيز آل الصديق ودع زيداً يجهز معى لآل محمد وستلتقى الرواحل عند بطن الوادى وقت السحر

وما أطلت الشمس من فوق كواهل الجبال حتى كانت خمس رواحل يعلو بها الطريق وينخفض وينثنى ويعتدل ، وتهتز هزات منتظمة على

---

(١) روى أنها كانت تحوى ٥٠٠ درهم من مال أبى بكر لترحيل آل بيت محمد وأبى بكر وهن فاطمة بنت رسول الله وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت عتبة وفاطمة أم على وأم أيمن وولدها أسامة وأم كلثوم وسودة زوجته وعبد الله بن أبى بكر وعائشة وأسماء وأم رومان زوجة أبى بكر وفى الحديث (من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان) أما بنته زينب فمكانت تحت ابن خالتها ابى العاص بن الربيع وكان مشركا إذ ذاك ثم أسلم ، أما رقية فقد هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان .

وقع الخفاف تصافح الرمل . وتصفع الصخر ، وأمامها دليل الطريق عبد الله بن أريقط يحمل وجهه الفاحم وأنفه الأشم ، وعمامته المسترسلة على ظهره ، وعصاه فوق كتفه تهتز على وقع خطواته ، وعلى يشرف على الركب ذهابا وجيئة ، يضم المنصرم . ويعدل المائل . ويستحث الخطا ويساهم فى الخدمة . أنست فرحة الهجرة عليا واجبه فى السؤال عن حالة الرسول وأصحابه ، فلما خلا الطريق واعتدل الركب . دنا على من زيد بن حارثة وسأله :

— كيف حال الرسول وأصحابه ؟

فأطرق زيد مليا وقال :

لا بأس على بعضهم

على — والبعض الآخر

زيد — والبعض الآخر قد أصابه طائف من الحمى تستوطن هذا البلد .

على — هامسا — والصديق أبو بكر

— فمال زيد على أذن محدثه وقال :

— إنه بين المرضى

فأطرق على طويلا ، وصار يمشى بقدميه دون رأسه ، فكان يحيد عن الطريق السوى تارة ، ويتعثر تارة أخرى ، ولعله كان مشغول الذهن بما وصلت إليه حالة المسلمين فى مهجرهم ، بعيدين عن الأهل

والوطن ، ومن عساه يقضى نحبه منهم غريبا نائيا ، ومن ستكتب له السلامة ، ومدى تأثير ذلك فى نفوس حديثى العهد بالاسلام ، ومبلغ شماتة المشركين وتخريجاتهم لذلك . ثم أفاق على صوت عبد الله ابن أريقط يغنى بقول أبى بكر

كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

فهز على رأسه وراح يردد (والموت أدنى من شراك نعله)

ثم سأله

وكيف استقبل رسول الله فى يثرب ؟

زيد — استقبل كأحسن ما يستقبل ملك

على — وعلى من نزل الرسول ضيفا

زيد — على بنى النجار فى دار أبى أيوب حيث بركت ناقته ، وقد بنى فوق مبركها - بعد أن اشتراه - مسجداً وبنى إلى جواره دوراً للفواطم ، وقد وضع النبى الحجر الأول ودعا بأبى بكر فوضع الثانى ثم دعا بعمر فوضع الثالث ، وقال هؤلاء الخلفاء من بعدى (١) وقد بلغ طوله سبع أذرع ثلاث منها بالحجارة ، والباقى باللبن (٢) ورفع عرشه على جذوع النخل ، وسقف نصفه بالجريد ، وفرشت أرضه بالحصباء (٣) ويضاء ليلا بنار السعف . وقد اتخذ بعض الصحابة

---

(١) وهكذا فعل الرسول عند بنائه مسجد قباء (٢) جمع لبنة وهى الطوب النيىء (٣) حتى يمكن الصلاة فيه عند المطر وكان صلى الله عليه وسلم يقول ماأحسن هذا البساط

من المسجد ثكنة لهم ، وجعلوا فى القسم المسقوف صفة لحفظ طعامهم وثيابهم (١)

وكم كان جليلا منظر الصحابة متعاونين فى بنائه ، جماعة تنقل الحجارة واللبن ، وعلى رأسهم رسول الله يشجعهم بأنشودته

هذا الحمال (٢) لاحمال خيبر هذا أبر — ربنا — وأطهر

وجماعة أخرى تلتزم الطين وعلى رأسها طلق الحنفى وقد كان نشيدهم وهم يعملون

اللهم ان الأجر أجر الآخرة فارحم الانصار والمهاجرة

وعافهم من حر نار ساعره فانها لكافر وكافره

وجماعة ثالثة كانت تعمل فى البناء وهى تهزج

لئن قعدنا والنبي يعمل فذاك منا العمل المضلل

وكان عثمان بن مظعون يحمل اللبن ويتحرز من التراب فمازحه زيد بن الخطاب راجزا

لايستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا

* * *

---

(١) وهم الذين عرفوا فيما بعد بأهل الصفة

(٢) الحمال هنا بمعنى المحمول أى أن المحمول هنا من طين وحجارة ولبن ، أفضل عند الله من محمول خيبر من تمر و زبيب .

فى ساعة باكرة من صباح اليوم العاشر من ربيع الأول ، رددت أحياء بنى النجار صدى رغاء ابل . يمتزج بأصوات تهان . وترحيب وتعاون ونداءات . يعلوها جميعا صوت قوى آمرناه . فعرف رسول الله أنه صوت ابن عمه على، فسارع الى لقائه ، وما وقع نظره على الرسول حتى ألقى بنفسه بين أحضانه . ورسول الله يقبل منه كل ما تصل إليه شفته ، ثم جاء أبو بكر يتحامل على نفسه يرحب بأهله

ولم يمض على حضور على إلا قليل. حتى أخذ التعب يغالب جسده والتورم يطفو على ساقيه ، والدم يسيل من قدميه ، بعد أن قطع مابين مكة ويثرب ماشيا ، زيادة فى الأجر والثواب ، فنظر الرسول إليه حنانا . وتنفس ألما ، وراح يجفف دمه بقطيفة كانت عند أبى أيوب ثم راح يجمع بين أشفار جراحاته ، ويضم بعضها الى بعض ، ويمسح عليها بريقه ، فتجف وتندمل ، ثم عاد الى ساقيه يدلكهما بيديه الكريمتين وهو يقول

— فى سبيل الله ثم فى سبيل رسوله

ثم ضمه الرسول كرة أخرى فى شوق عميق ، وحنان سابغ

وما كاد رسول الله يعاود التدليك ويدهن جراحه بلعابه الشريف حتى انتصب واقفا على قدميه ، راغبا فى زيارة المرضى من المسلمين ، ولعل رسول الله أشفق عليه من المشى بعد هذا الاجهاد الطويل ولكنه أصر على أن يعود إخوانه المرضى ، فأخذ يرفع قدما ويضع

اخرى ، كأنه يسير فوق شوك ، فيتوكأ على الجدران تارة ، ويعتمد على زيد تارة أخرى ، ورسول الله خلفه ينظر إليه فى حنو وأسى ، حتى وصلوا الى حيث يتمرض بلال بن أبى رباح واخوانه وما وقع نظر على عليهم ، حتى هوى نحوهم تقبيلا وضما ، ثم راح يمسح عرق الحمى من فوق جبهة عامر بن فهيرة وبلال بن أبى رباح ثم أقبل عمر وأبو سلمة وسعد بن معاذ وغيرهم يعودون إخوانهم ويهنئون عليا ثم سأله زيد

— ماذا صنعت قريش بعد هجرة الرسول

على — راحوا يعذبون المسلمين ويستولون على أموال المهاجرين ويرسلون رسلهم إلى كل طريق ، وجعلوا مائتى ناقة لمن يأتى بالصاحبين ، وقد أغرى هذا الجعل سراقة بن مالك ، فطار خلف رسول الله على جواده المشهور ، ولكنه لم يلبث أن عاد مكفهرا مرجوفا . لا يلقى أحد إلا قال له ، لا أثر لمحمد وصاحبه فى هذا الطريق ، فطاردوه فى طريق آخر ، وفى صباح اليوم التالى رددت طرقات مكة صدى صوت شج يقول

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبر ثم ترحلا فأفلح من أمسى رفيق محمد

سار هذا الهاتف فى شوارع مكة وخلفه جمهرة من الأطفال تردد مايقول ، دون أن ترى الناس شبح هذا الهاتف ، ولم يسمع أبو جهل

بذلك حتى راح يبحث عن سراقة ، فلما عثر به عند الصفا أخذ بمخنقه وهو يقول . لم كذبتنا يا ابن مالك وذدتنا عن طريق محمد وصاحبه ، وقد سمعت من أخبار الهاتف ماسمعت

فأنشد سراقة

أبا حكم والله لو كنت حاضرا
لامر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً
رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

فضغط أبو جهل على مخنقه وهو يعلك أسنانه ويقول

والله إنى لأراه قد سحرك

فقال له سراقة

أتذكر يا أبا الحكم يوم خرجت على محمد لتقتله بصخرة وهو ساجد ؟

أتذكر أنك حدثتنا بأن فحلا هائلا قد استقبلك ثائراً يبتغى صرعك ، فوليت منه مذعورا

الحكم — أنى لاذكر ذلك ولا أنساه

سراقة — فهل كنت كاذبا . أم ان محمدا قد سحرك ؟ ففارقت يد أبو جهل مخنقه وطأطأ رأسه وانصرف لا يلوى على شىء .

أصوات — الله أكبر الله أكبر .

ثم دخل على الجميع وهم فى هذا الحال ، أصيل الغفارى ، قادما من مكة ، فسأله عامر بن فهيرة .

كيف تركت مكة ، يا أصيل ؟

ـ تركتها وقد ابيضت أباطحها ، واخضل ثمرها . وفاح اذخرها فاغرورقت عينا رسول الله بالدموع . وقال (لاتشوقنا ياأصيل . ودع القلوب تقر) فتقلب فى فراشه . واعتمد ساعده . ودنا من حائط الدار واسند ظهره إليها . وأخذ يهز رأسه يمينا وشمالا . ثم زفر طويلا وأنشد

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى الخزامى حيث ربتنى أهلى
بلاد بها نيطت على تمائمى وقطعن عنى حين أدركنى عقلى

رسول الله ـ اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدها وصاعها وانقل عنا وباءها إلى مهيعة (١)

---

(١) قرية كان يسكنها اليهود

براهم سياسية

تجمع هذه الصورة ألوانا من
سياسة النبي الداخلية إزاء اليهود
تمهيدا لتنفيذ سياسته الخارجية

إن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس
وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة
غير مظلومين ولا متناصر عليهم. محمد رسول الله

كانا يسيران متجاورين لا تسمع عنهما الا وقع الخفاف على صفحة الرمل فى جرس متئد منتظم ، ولعلهما كانا يستعرضان ماوصلت اليه الحالة فى يثرب ، وما سوف تتمخض عنه فى الغد ، ثم وقف أحدهما فجأة وشخص إلى صاحبه مقطب الجبين وقال

— ترى ما هى الخطوات التالية ، بعد أن آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج ، وقضى على دسائس المنافقين ، واستقر الأمر للمسلمين ، وسلكوا مسالك الرزق موفقين سهل — إنى لأرى والله أن الأمر لم يستقر للمسلمين بعد ، وأن يثرب ليست لهم وحدهم ما دام اليهود يملكون فيها من الثروة حظا موفورا وما دام هؤلاء اليهود ينظرون إلى رسول الله نظرة الطير للصائد لا الجيش للقائد

صخر — هذا صحيح غير أنه قد انتهى إلى أن رسول الله يستشير كبار أصحابه منذ أمد ، لوضع عهد بين المسلمين واليهود يقرهم فيه على دينهم . ويؤمن عليهم دماءهم وأموالهم ، حتى تطمئن نفوسهم إلى الدين الجديد وأصحابه . ويتوحد بهذا العهد سكان يثرب على اختلاف أديانهم ، فتصبح المدينة جبهة واحدة ، أمام ماينتظرها من أحداث ، فلا يسهل

اقتحامها علينا . ولا يستطيع عدو أن ينفذ بين صفوفها

ثم أخذ بمعصم صاحبه وأخذ يشير له بسبابته قائلا

انظر يا أخاه إلى هذا البخيل يسد على يثرب مشرق الشمس . ومغربها ، ثم إلى هذه الآبار وفى مقدمتها بئر (رومه) النمير ، ثم إلى هذه المنازل تقع يثرب فيها كما يقع المعصم داخل السوار ، كل هذا أو جله ملك لليهود ، فماذا تكون الحال لو تواطأ اليهود والمشركون علينا ؟! اللهم إلا أن يكون بيننا وبينهم مثل هذا العهد الذى يسنه رسول الله الآن

سهل — تالله انه لعمل جليل القدر ، وإنى على كثرة ماسمعت من الاخبار ، وقرأت من أسفار ، لم أقف بعد على اخبار نبى يجمع فى يده قياد الدين وزمام الدنيا ، ولكن هل تظن أن ذلك يرضى جيراننا من بنى اسرائيل على ما شغفوا به من الدسيسة وولع بالتقلب وحب التفرقه . وكلف بمحالفة القوة أنى وجدت

صخر — ليت شعرى .. وكيف لايطمئنون إلى العهد الجديد ودينهم ودينا من نبعة (١) التوحيد ، وصلاتنا إلى قبلتهم ، وصيامهم فى شهر المحرم يصومه رسول الله ، والختان والذبح فى الشريعتين من أرومة واحدة ، فماذا يحفظهم على الاسلام والمسلمين بعد أن نصبح وأياهم أمة واحدة لهم مالنا وعليهم ماعلينا

سهل — انما يحفظهم يا أخاه — فيما أرى سلطانهم الذى كان لهم

---

(١) شجرة

على أهل يثرب ، فتداعى أو كاد ، وتجارة الربا وقد علموا أن رسول الله يحاربها بكل ما ملكت يداه ، وطماعيتهم فى القضاء على النصرانية بالجزيرة والشام ، ليعودوا سادة فى أورشليم ، ولكنهم لم يأنسوا من رسول الله هوى إلى ذلك

صخر — والله انى لأرى أن الخروج على مايكتبه رسول الله اليهم — من عهد — بطر وتمرد ، وأنه سيكون محل الرضاء بين عقلائهم وبعض أحبارهم ، ومتى تم هذا الرضاء عند جماعة وصلف (١) عليه آخرون ، فستحل الفرقة بينهم ، فيصبحون أجساداً بلا رؤوس ، وعندها يسهل التفاهم معهم اختيارا أو اضطرارا ، فيشربون من نفس الكأس التى سقوا منها أبناء العمومة من الأوس والخزرج ، وتكون خاتمة النصر للمسلمين

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (٢) يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم

---

(١) بفتح فكسر أى تكبر وتمرد

(٢) استقامتهم أى على أمرهم الذى كانوا عليه

يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف . والقسط بين المؤمنين ، ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار ، ثم قال . وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم (٢) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن ايديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر . ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . وإنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة (٣) غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وان المؤمنين يبىء (٤) بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله . وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط (٥) مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به . إلا أن يرضى ولى المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ،

---

(١) المفرح المثقل بالدين والعيال (٢) طبيعة (٣) المساواة فى المعاملة (٤) يقال أبأت فلانا بفلان إذا قتله به يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم (٥) أى قتله بلا جناية كانت منه أو جرم

ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وانه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثا (١) ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وانكم مهما اختلفتم فيه من شىء فان مرده إلى الله وإلى محمد . . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم موالیهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فانه لا يوتغ (٢) إلا نفسه وأهل بيته وان ليهود بنى النجار و (غيرهم) . مثل ما ليهود بنى عوف وان موالى ثعلبة كأنفسهم . وان بطانة يهود كأنفسهم . وانه لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد . وأنه لا يتحجر (٣) على ثأر جرح . وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم ، وان الله على أبر هذا . وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وان بينهم النصح والنصيحة . والبر دون الاثم . وانه لم يأثم امرؤ بحليفه . وان النصر للمظلوم . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها . وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وان

---

(١) جانيا (٢) يهلك ويفسد (٣) لا يلتئم جرح على ثأر .

الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

وانه لاتجار قريش ولا من نصرها . وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فان لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وإن يهود الأوس موالبهم وأنفسهم على مثل مالاهل هذه الصحيفة مع البر المحض ، من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الاثم . لا يكسب كاسب إلا على نفسه . وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وأثم . وان الله جار لمن بر واتقى ...

وضع الحصين ما كان بيده من صحف بعد الانتهاء منها وقال :

هذا ما أرسله إلينا محمد من عهد ، فتشاوروا فى أمر قبوله أو رفضه ثم ساد المجلس صمت طويل ، وعلت وجوه البعض حمرة التفكير ، وتسايل العرق من وجوه البعض الآخر ، وراح فريق ثالث يعبث بلحيته فى نظرات حادة ، ولعله كان يستعرض ماعلق بذهنه من عبارات هذا العهد

ولم يشق هذا الوجوم إلا صوت فى مؤخرة الاجتماع يطلب تلاوة العهد مرة أخرى

فراح الحصين (١) يجمع صحائفه وينظمها ثم قرأه مرة أخرى

رفاعة بن قيس — ليس هذا الحلف إذا قبلناه — إلا بمثابة التنازل عن آخر سهم فى سيادتنا . وإلا فما معنى قوله (وانكم مهما اختلفتم فيه من شىء يخاف فساده فان مرده الى الله ورسوله) مع أن لنا شرعة سماوية خاصة ، واحبارا اجلاء ، لهم حق الفصل فى مثل هذه الشئون ! بل كيف يتفق هذا مع قوله (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) فان كان لنا دين يعترف به محمد وأصحابه فان مردنا فيما نختلف فيه يكون الى هذا الدين وحده ، وان لم يكن لنا دين معترف به فلا معنى للنص عليه فهذا اما خلط وتناقض ، وأما جادة (٢) فى استلاب الحقوق جديدة

الحصين — أرى أنه لاخلط ولا تناقض ، لأن ماسوف ترجعون فيه الى الله ورسوله ، لايكون إلا فيما تختلفون فيه مما يخشى فساده من حدث أو اشتجار . أما ماتواطأتم عليه ورضيتم به ، فلا سلطان لأحد عليكم فيه إلا شريعتكم وأحباركم

نعمان بن أضا — وبأى ثمن نحارب معهم ونريق دماءنا من أجلهم .

ميمون بن يامين — لأنهم سيبذلون دماءهم من أجلنا . وفاء بما فى الصحيفة حيث تقول (وأنه من تبعنا من يهود فان لهم النصر والاسوة (٣) غير مظلومين ولا متناصر عليهم) على أن الصحيفة نصت

---

(١) وقد أسلم فيما بعد وسمى نفسه عبد الله بن سلام (٢) طريقة (٣) المساواة فى المعاملة

أكثر من مرة ، على أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ولم تنص على أن المؤمنين ينفقون مع اليهود ، وهذا كسب كبير ، ثم لا تنسوا أن الحلف فى هذه الناحية من مصلحة الجميع ، لأنه دفاع عن يثرب التى قال فيها (وان يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة)

ثم قال (وان من خرج فهو آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم)

أبو رافع الأعور — يحرم محمد جوفها ولكن على غيره وغير أصحابه الذين ابقوا (١) إليها جياعا عراة ، فأضحوا من ملاكها وأصحاب التجارة والضياع فيها ! ماذا بقى فى يثرب مما يخشى عليه بعد ذلك

الحصين — ليت شعرى يا أبا رافع ! انرضى بمقام رجل كهذا أقرنا على شريعتنا واحترام عقيدتنا ، وساوى بين صفوفنا ، وحظر ارتكاب القبيح والمحرم بيننا ، واستعد للذياد عن مدينتنا أم أن نرضى عن قريش فى وثنيتها ، والمسيحية فى منعتها ، تدهمنا بخيلها ورجلها وتخرجنا من ديارنا صاغرين ، كما أخرجتنا من ارشليم (٢) ارض الميعاد ؟ !

كعب بن الأشرف — ان قريشا فى وثنيتها خير من محمد فى توحيده ، مع مايهدد مستقبلنا على يده (٣)

---

(١) ابقوا بتحريك الباء أى هاجروا (٢) فلسطين (٣) وقد سبق أن أفتى أحبار يهود وفد قريش ورسول الله لم يزل بمكة — أن دين قريش اهدى من دين محمد ، ونزل فى هذا آية (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)

عبد الله بن صوريا — ما أشبه هذا الكفر بحديث الحبر السمين (مالك بن الصيف) بلغ به الحمق ، أن أنكر امام محمد بالأمس نزول الوحى على بنى البشر (١) ونسى أن كليم الله بشر ، وأن الوحى ينزل عليه ، فكفر بموسى ومحمد

شاس بن قيس — ان محمدا قال له (بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين ؟ فأنت الحبر السمين مما تطعمك به اليهود ، فضحك القوم ، فأحرج مالك ، وقال ماقال تحت ضغط الحرج ، على أنه رغم عذره فقد جردناه من رآسته الدينية

ميمون بن يامين — وإذا كانت هذه ثمرة العاطفة الجامحه ، فكيف نقع فيما عبناه على الغير . بتفضيل وثنية قريش على وحدانية محمد . ونحن وإياه على وحدانيته ، نكره الشرك وثنية وابوة وبنوة وصحبة

أبو ياسر — وهل رحبنا بمحمد وأصحابه إلا ليفتح امامنا أرض الميعاد التى أخرجنا منها . ويجلى المسيحية الجائحة عنها ؟ ولكنه شغل بحاجته وحاجة أصحابه عن حاجة الناس .

مخيريق — لا أدرى والله ما وراء كل هذا الجدل . ولا أدرى ما ننتظره من رجل له فى يثرب كل هذا الحول والسلطان ، ثم يخطب ودكم

---

(١) وفى هذا نزلت آية « ما أنزل الله على بشر من شىء » على لسان هذا الحبر

وينزلكم منه منزلة الحليف الكريم .. حاربوه إن شئتم ، أو اقتلوه إن استطعتم . أو انفذوا من أقطار السموات والأرض إن قدرتم !!

فيحاص — يا ليت شيئا من ذلك قد تم ، فقد وضع له لبيد بن الأعصم سحراً فى بئر (أروان) فعوفى منه !! وليس بين شعب اسرائيل من يستطيع منازلته ، بعد أن دانت له سيوف الأوس والخزرج ، ولكن ماذا علينا لو رفضنا هذا الحلف ، ثم غشينا مجالسه نسائله أمهات المسائل العلمية ، والمعضلات التوحيدية ، إثارة للشبهات فى رؤوس أصحابه وهم قريبو عهد بالوثنية

عبد الله بن صوريا — لا تسمعوا لهذا الكلام ، واعرضوا عنه ، فان صاحبه محفظ الصدر ، من محمد وأصحابه لترة (١) خاصة ، فقد تحدث اليه يوما أبو بكر يدعوه للاسلام ، فقال له ان الله فقير يستقرضنا أموالنا فهو الينا فقير ونحن عنه أغنياء ، فصفعه أبو بكر صفعة قوية فذهب إلى محمد يشكو اليه ، فلم يأخذ له بكل حقه كما كان ينتظر .. فهل الله خالق موسى بن عمران فقير ونحن أغنياء كما يقول ؟! (٢)

أصوات — حاشاه حاشاه

على أنكم قمتم بسؤاله عن حقيقة الروح وعن خالق الجن والأنس وعن قيام الساعة ، وما أوتى موسى من الآيات التسع (٣) وعن أسماء

---

(١) ثأر (٢) وقد نزلت فى ذلك (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)

(٣) وفى هذا نزلت (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل إذ جاءهم الخ)

الأيام التى خلقت فيها السموات والأرض ، وعن أعظم الشهاده ، وعن حقيقة الله ، وعن أول طعام يأكله أهل الجنة ، فأجاب عن كل هذا طبقا لما جاء فى التوراه ، فازداد بذلك حبا وثقة فى نفوس أصحابه بدلا من أن يثير ما كنتم تنتظرونه ، من لغط أو شبهات أو تشكك

ميمون بن يامين — وعندى أنه لم يقصد بهذا الحلف فى الواقع ، إلا مناهضة عباد هذه الغرانيق (١) من يثربيين ومكيين ، فان الكتاب فى مجموعه ليس إلا نداء لجمع شتات المسلمين واليهود فى معسكر واحد ، لمواجهة خطر المستقبل ، بعد أن ربط بينهم برباط الاخاء . والمساواة فى الحقوق والواجبات . ولا أعتقد أن هناك خطرا إلا عليهم وهذا مايؤيد عهده بقوله (وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها) ومن ينصر قريشا إلا من كان على دينها من أهل يثرب .

الحصين — اغلب الظن أنه لم يبق للشك إلى نفوسكم طريق بعد كل هذا النقاش ، وأرى قبول هذا الحلف ، لنظفر بصداقة هذا الرجل الذى يتضاعف نفوذه وسلطانه يوما بعد يوم . عسى أن نستطيع حمله يوما على أن يغزو لنا المسيحية فى أرض أرشليم ليأوى اليها المضطهدون فى بنى اسرائيل وطنا كريما ومنزلا مباركا

وهنا اختلطت أصوات الاحبار بين الرفض والقبول . وسادت

---

(١) الاوثان

(دار المدارس) (١) الجلبة والضوضاء . وقام زهاءها رؤساء بنى قريظة وبنى قينقاع . غاضبين رافضين التوقيع (٢) مقسمين بموسى الكليم ، ليكيدون لمحمد ما استطاعو إلى ذلك سبيلا

ثم مال كعب بن الأشرف ، على إذن رافع بن حارثة يسر اليه ببعض الحديث ، فاحمر وجه رافع غضبا . واتسعت عيناه دهشة ، ثم أطرق برأسه إلى الأرض لا يقول شيئا ، ثم رفع رأسه وتوجه إلى الحصين وقال :

أتكون أذهاننا قد خانتنا حين نفهم أن نقاش حبرنا الكـ ومن لف لفه ، يحمل روح الدفع عن هذا الرجل ، وأن لهذا سرا خاصا

الحصين — هذه نهاية سدنة (٣) الحق دائما ، لا يرضون الناس .. ولكن حسبهم ارضاء الله وارضاء افئدتهم

حيي ابن اخطب — ومامعنى هذا الكلام المغلق

الحصين — سيتولى المستقبل القريب تبيان ماغمض منه عنكم

عاد المجلس إلى صمت عميق ، كان الحصين واصحابه أثناءه نهبا للعيون وطعاما للغيظ والاحقاد ، ولولا صبابة من الاحترام القديم وأثر من التشكك فيما تطرق إلى الاذهان لاصبحوا أثرا بعد عين

---

(١) مجتمع اليهود (٢) ولم يلبثوا بعد حين أن وقعوا مع النبى حلفا كهذا الذى وقعه غيرهم

(٣) خدام

ثم نهض كعب بن الأشرف واقفا وراح ينفض عن ذيله التراب في غيظ وحنق ثم قال

تعسا للدسائس تلعب بيننا وقبحا للدساسين يعاونون الدخلاء

مخيريق — أين مكان الدسيسة يا كعب ، وأين مواضع الدساسين ؟ هل الرجل الذى عاش دهره معلما فيكم ، وطال عوده فى دوحة محبتكم ورضاكم ، ووقف بينكم يذال الصعب . ويرسل على المدلهمات نور أفكاره تعرضون بعقيدته على هذا النحو المرذول

كعب — ماذا عسى أن يفهم بعد كل هذا الذى سمعناه منه ، إنه لا يذكر محمداً إلا إذا سكت هنيهة وحرك لسانه فيها بما لا نسمع ! وأغلب الظن أنه يصلى عليه كما يفعل أصحاب محمد ، ولا يتحدث إلا إذا أحاطه بعبارات التجلة والاحترام ولا يحاول أن يناقش عهده الذى أرساه الا انبرى له واصحابه يسفه رأيه ويفند حجته

مخيريق — لقد أخطأتم الفهم فى كل ماقيل، ولكنها لغة العلم نحو العلماء على أنكم لاتنسوا أن محمدا فى مكان القوة منكم ، وأنه رغم ذلك قد أخذ نفسه بما أرسل إليكم اطمئنانا لكم . فان قبلتم مصالحته كان خيرا لكم وان رفضتم يده ، وفى بما عاهد من جانبه حتى تناوئوه موقفه وعندها يكون له العذر فيما يصنع ، والجزاء المنتظر لكم

أصوات — ماهذا التهديد .

مخيريق — لاتهديد ولاوعيد . . أن أحبارنا يعرفون صفة الرجل

فى الكتاب الذى نزل على كليم الله ، ولكنهم غيروها ومسخوها ارضاء لمشاعر العامة واحتفاظا بحق القوت عليهم ، مؤثرين البقاء على أرزاقهم (١) دون البقاء على ماجاء به التوراة

أصوات — قوموا بنا فقد طفح الكيل

* * *

لم تمض أيام حتى تناقلت الالسنة وشاع فى كل مكان نبا اسلام عبد الله بن صوريا وميمون بن يامين والحصين وسمى نفسه عبد الله ابن سلام وذاع اسلام مخيريق اليهودى المعروف بثرائه وتجارته الواسعة مابين مكة ويثرب ، ومابين يثرب والشام . ونصب الأولون من أنفسهم معلمين لأولاد المسلمين القراءة والكتابة ، وتحفيظ مايستظهرونه من القرآن ، وراح الأخير ينفق فى سبيل الله ويهب

* * *

وقف شاس بن قيس يعبث بلحيته ويحدق بعينيه الضيقتين دون نادى الانصار وكلما رأى مظاهر اخائهم وتعاونهم اعترته نوبة من القلق فشبك يديه خلف ظهره المقوس ، وظل فى غدو ورواح مطرقا مهموما ، ولعله كان يفكر فى طريقة لمحاولة إشعال الفتنة بين هذه الأسرة الاسلامية ، ثم رفع حاجبيه الكثين وراح يستعرض المارة

---

(١) وفى هذا نزلت (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما أ تاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا)

حتى وقع نظره على أشيع بن مشكم المغنى اليهودى المعروف . فاستدعاه ونحابه جانبا . وهمس فى أذنه بكلمات . ثم انصرف وخلف أشيع يحوم حول نادى الانصار . حتى رأى ثلة من المسلمين تقصد النادى فسار خلفهم ودخل معهم . وظل بصره ينتقل فى وجوه المتحدثين واحدا بعد الآخر . حتى إذا فرغ السمار من أحاديثهم وساد السكون المجلس أسند ظهره الى الحائط . وأرسل فى هذا السكون نغما خفيتا حنونا ، ثم أخذ صوته يعلو رويدا رويدا بقول أبى قيس بن الاسلت الأوسى (١)

على أن قد جمعت بذى حفاظ فعاودنى لها حزن رصين
فاما تقتلوه فان عمرا أعض برأسه عضب (٢) سنين (٣)

فاهتز بنو الأوس طربا وتفاخرا ، واحمرت وجوه بنى الخزرج حنقا وغيظا واستعيدت الأبيات من الأول . بينما عارض الآخرون ، فاحتد بعضهم على بعض . وتسابوا وتشادوا وتنادوا للحرب ولجئوا إلى السلاح

* * *

(الله . . الله ! ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم للأسلام . وأكرمكم به . وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم)

---

(١) من قصيدة قالها الشاعر فى واقعة بعاث قتل فيها أكثر زعماء الفريقين ،

(٢) العضب السيف (٣) السنين الحاد

كلمات أطلقها الرسول غاضبة مدوية ، نطقت بها قسماته فصيحة كلسانه . وتحدثت بها جوارحه قوية كبيانه ، واهتز لها عوده فارها مستعرضا على غير طبيعته . فكنت تراه وقد أقبل على القوم مسرعا يجر عباءته ، كأنه جبريل أرسل على الأرض جناحيه ، فاختفى أصحابه فيما أثار من تراب ، ثم أرسل ذراعه فى الفضاء كالشراع تحركه اتجاهات الحديث ، وموجات الانفعال حتى انتصرت شخصيته على نزعات التفرقة وحمية الجاهلية ، ورقت قلوب المتخاصمين حتى تدانت الأجسام . واستعبرت العيون وتلاقت الصدور وتعانق المتشادون . فهدأت ثائرة الرسول ولمعت أساريره بالفرح فتشجع أوس بن قيظى وقال :

— والله يارسول الله ما ندرى ونحن نسمر إلا ومزمارة خبيثة تنطلق بقول أبى قيس بن الأسلت

على أن قد فجعت بذى حفاظ فعاودنى لها حزن رصين الخ ،

فهزت الأوس رؤوسها طربا . واحمرت وجوهها زهوا وفخرا ، بينما غضبت الخزرج وعرقت جباههم حياء وخجلا ، ثم صاحوا بالشادى أن اسكت وإلا . . فانتصرت له الأوس وطلبوا إليه المضى فى الغناء فتشاد القوم وتنازعوا ثم صاح جبار بن صخر وقال . إن شئتم رددناها الآن جذعة (١) فرددت عليه وإن موعدكم الظاهرة (٢)

---

(١) قوية كما كانت (٢) الظاهرة مكان خارج يثرب

فتنادى الفريقان ، . السلاح السلاح ، وكان ما رأيت .

عمر بن الخطاب — إنها والله لمزمارة الشيطان غاظته إخوتكم فى دين الله ، واحفظه توادكم فى سبيله وتراحمكم فى محبته ومحبة رسوله

أبو بكر — إنى لعلى يقين بأنها أصبع يهودية حاولت تحريك هذه الفتنة

أصوات — هذا ما لا ريب فيه (١)

* * *

وقطع عليهم حديثهم فى بيت المدارس (٢) أشيع بن مشكم قائلا

— ألم أقل لك يا ابن قيس أنه لن يحدث ماتتوقع ، لقد أدركها محمد صاحبهم قبل أن تشتعل ، فأطفأها بكليمات تافهة ، وعاد القوم إلى سابق صفائهم ومودتهم

شاس بن قيس — لم يكن ماحدث غير متوقع ، فقد وقفت على الكثير من دهاء هذا الرجل ومكره ، أفلا تذكر يوم جاء من قباء إلى يثرب وهزت الجميع أريحية الكرم : وراحوا يتنازعون زمام الناقة ، راغبين فى ضيافته ، فيقول لهم (دعوها (٣) فانها ملهمة) تخلصا من

---

(١) وقد نزل فى هذا الحادث قول الله « يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون »

(٢) ناد لليهود (٣) أى الناقة

الجنوح إلى أحدهم فيغضب الباقون ، حتى بركت ناقته فى أرض أخواله ! وإلا فمتى كانت النوق فى عداد الملهمات ؟!

ثم ألا تذكر يا أخاه أن قدمه ما كادت تطأ أرض يثرب . حتى أغرى الجميع ببناء المنازل ، وأرسل فى طلب أبنائه ثم استدعى المهاجرين والأنصار ، فآخى بين فقرائهم مؤاخاة خولت لكل منهما حقا فى تركة أخيه بعد وفاته (١) فمنهم من رضى عيش الاخاء واقتسم مع أخيه ثروته ورزقه ، ومنهم من أبت عليه نفسه إلا أن يزارع ويتاجر ، ومنهم من أعد لهم صفة المسجد (٢) وأجرى عليهم الأرزاق من مال أغنيائهم . . ولعله لا يغيب عنكم ماوصلت إليه ثروة عبد الرحمن ابن عوف . وقد أضحت قوافله تملأ الصحراء مابين يثرب والشام بعد أن كان فقيرا لا يجد قوت يومه ، وهذا محمد بن أبى بكر وزيد ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، أضحوا جميعا من كبار الزراع وقد كانوا بالأمس كلا على سواهم . فمن أين ثروتهم إلا أن تكون من أرض يثرب وهى ملك لأهلها

---

(١) ظل هذا الحق معمولا به حتى الغى ذلك كتاب الله فى غزوة بدر بقوله (وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) (٢) المكان المسقوف منه . وهم المعروفون بأهل الصفة .

من أفراح النبوة

يصور هذا الباب كيف بنى رسول الله
بعائشة وكيف بنى على بفاطمة ، مما
أسبغت أعياده على المسلمين فرحا وسعادة.

— ١ —

خذوا نصف دينكم عن هذه
الحميراء ، محمد الرسول

ولعل خولة بنت حكيم (١) قد أدركت من اطراقته الطويلة فى هذا الجو الصامت ، انه يستعيد ذكريات خديجة التى كانت تملأ عليه المنزل نورا وعطفا . فأرادت أن تقطع عليه حبل تفكيره وأحزانه لتزف إليه شيئا من السرور ، ففاجأته قائلة

— أى رسول الله . . . ألا تتزوج ؟

فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم وذرعها (٢) بنظرة خاطفة ثم عاد إلى إطراقته ، وكأنه قد عز عليه أن يستمع لحديث الزواج ، بعد خديجة التى آمنت به حيث كفر الناس ، ووهبته قلبها وماله حيث تنكر له الأهل ، لولا حياة الكفاح المضنية . وعيشة الوحدة القاسية . وحاجة الوالد لمن يعنى بأولاده الصغار . . فرد على استفسارها قائلا .

— ومن تكون ؟

خوله — إن شئت بكراً وإن شئت ثيبا

رسول الله — فمن البكر ؟

---

(١) زوجة عثمان بن مظعون (٢) شملتها نظرته من أسفل إلى أعلى

خوله — إبنة أحب خلق الله إليك ، عائشة بنت أبى بكر

رسول الله — ومن الثيب ؟

خوله — سودة بنت زمعة بن قيس قد آمنت بك . واتبعتك على ما أنت عليه

رسول الله — إذهبي فاذكريني عندهما

* * *

ودخل أبو بكر متهلل الوجه ، تطل من عينيه الضيقتين أشعة السرور ، سريع الخطى مبهور الأنفاس ، فاستلقى على أول وسادة صادفته فى حجرته الفسيحة التى اتخذها لكبار زائريه . فسارعت اليه زوجته ولاحقتها خولة بنت حكيم . تحمل إليه جواب رسول الله فيما سأل عنه وابتدرته قائلة :

يقول لك رسول الله محمد (إنما أنت أخى فى الإسلام وأنا أخوك وابنتك تصلح لى)

أبو بكر — حمداً لله على ذلك

أم رومان — (١) وكيف نتحلل مما ارتبطنا به مع المطعم بن عدى الذى خطبها لولده من قبل

أبو بكر — لقد أراد الله أن نتحلل من ذلك

---

(١) زوجة أبى بكر

أم رومان — وكيف ذلك

أبو بكر — ذهبت اليوم إلى منزل المطعم. وفى نفسى مرارة مما وعدته به بعد علمى برغبة رسول الله فى شأن عائشة، فابتدرتنى زوجته وقالت

يا ابن أبى قحافة . . لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك أن تصبئه (١) وتدخله فى دينك الذى أنت عليه

فربطت على قلبى أن يطير من الفرح، حين أدركت أن العجوز تهيء أسباب الخلاص من خطبة عائشة لولدها. ولكنى تظاهرت بالامتعاض والحزم. وتوجهت إلى المطعم أسأله فى ذلك متمنيا فى نفسى أن يسير فى ركاب زوجته. حين يرى ما انتابنى من ألم ويعفينى من قيود هذه الخطبة، فقلت له ما الذى تقول هذه المرأة يا ابن عدى ؟؟ فقال هو هذا الذى تقوله حق . . فحمدت الله على ذلك، ولم أستطع البقاء من شدة الفرح، فجئت إلى هنا سراعا لا ألوى على شيء

أم رومان — ولكن أنى لعائشة أن تتزوج فى التاسعة من عمرها

خوله — ان رسول الله لا يطلب يدها الا تكريما لأبى بكر الذى آخاه فى الأسلام، ووهب له حياته وماله. وسوف لا يبنى بها إلا بعد أن ينمو عودها ويخضل زهرها. ويبسق رمانها ويستدير .

---

(١) أن ترجعه عن دينه

فتمازح الحاضرون وتضاحكوا . وأطرقت أسماء برأسها إلى الأرض استحياء ، بينما عائشة تتواثب أمامهم طروبة ، تدور حولهم مرحة تعبث بالدمى (١) وتتقاذف الكرة بمؤخر السعف (٢) دون أن تعلم من أمر هذا المؤتمر شيئا . والكل ينظر اليها نظرة غبطة وسرور .

أم رومان — غير أنى علمت أن رسول الله قد خطب على نفسه سودة بنت زمعة بن قيس

خوله — ومن أوفى من رسول الله عهدا . وأعز صنيعا ، هذه أرملة السكران بن عمرو بن عبد شمس. هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فرارا بدينها . فعانت من أجله ما عانت . فلما تنصر زوجها لم تكن كالظل الذى يتبع الشاخص ، بل عادت إلى مكة صيانة لدينها . كما هجرتها لذلك ، فصانعها رسول الله بزواجها وفاء لقوة إيمانها . وثبات يقينها . فهى ليست بذات مال تنفقه فى سبيل الاسلام . ولا ذات جمال تغبط عليه

أبو بكر — إدعى لى رسول الله

خوله — فرحة — يالعظم ماأدخل رب الكعبة على بيت أبى بكر من الخير والبركة !!

* * *

(١) جمع دمية وهى لعبة الأطفال (٢) نهاية الجريدة من الناحية الغليظة

وفى أمسية الخميس الثانى من شوال كانت دار أبى بكر تزخر بالمسلمين . وفى مقدمتهم حمزة وعمر وعثمان وعلى . وتفيض بأنوار المصابيح الزيتية الهادئة . وتحمل الرياح عن أغصان الاذخر (١) شذاه العطر ، فينعش النفوس ويملأ الجو بالأريج الفياح ، وجاء رسول الله محمد وخلفه مولاه زيد بن حارثة، يحمل معه حقيبة ما كان أحد يعرف مابداخلها لولا رنين الفضة ، أصدقهما رسول الله أبا بكر فى ابنته ثم جاء موالى أبى بكروخدمه ، يحملون الخوانات (٢) محملة بالثريد واللحم والفالوذج (٣) فأكل الجميع هنيئاً وشربوا مريئا ، وعيون قريش تكاد تلتهم الوافدين والمنصرفين غيظا وكراهية .

* * *

وأطل ابو بكر من نافذة منزله فى ضاحية « السنح » بالقرب من يثرب ونادى خادمته (عاتكة) فوافته فى خفة الظبى واعتدال الرمح ووقفت دون سيدها . فأشار لها فدنت باذنها إلى شفته فأسرلها بما أسر ثم عادت مسرعة إلى حيث أمرها سيدها فوقفت دون سيدتها الرشيقة فى أرجوحتها الجميلة ، لا تهبط إلا لتصعد ، ولا تصعد إلا لتهبط ، بين يدى حاملين من جذوع النخل . وقد أخذت أنامل النسيم تعبث بجدائل شعرها الاثيث الفاحم . . ثم راحت تفلى حيلها لحمل سيدتها على ترك

---

(١) نبات ذو رائحة جميلة (٢) جمع خوان وهو مائدة الطعام (٣) حلوى تشبه البالوظة المعروفة

أرجوحتها تنفيذا لما أسر به سيدها إليها .. فراحت تحدثها حديثا عاديا علها توقف من هبوطها وصعودها . لتواصل الرد عليها ولكنها واصلته بغير امهال ولا توقف ، فرأت الخادمة أن تخطرها بحديث أشد من هذا جدية ، فأخطرتها بأن إحدى دماها غير موجود فى حرزها ، فبهتت لذلك عائشة . وتركت أرجوحتها تأخذ موقفها الطبيعى . استعدادا لمغادرتها والبحث عن دميتها الغائبة فى لهفة وغضب .

وما ان نزلت حتى أخذتها فى شىء من الحزم . وغسلت لها وجهها الوضىء ، ليزداد وضاءة ويفيض إشراقا. ووقفت أمها مع بعض الموالى خلف مشتجر من النخيل يتضاحكن فى كتمان . ويتمازحن فى اسرار وينظرن إلى ما تفعله (عانكة) بسيدتها ، بعين السرور والاعجاب .

ثم جففت وجهها من الماء بقطيفة عدنية . ثم قادتها بسرعة إلى الحجرة التى جلس فيها سيدها فى انتظار العروس الصغيرة قبل التمكن من أن تتوجه إليها بسؤال أو رجاء ، ثم وقفت بها هنيهة حتى تهدأ أنفاسها قليلا : ثم دخلت بها على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر . فأجلستها فى حجره وقالت

هذه أهلك بارك الله لك فيهن . وبارك لهن فيك

وما أن سمع الحاضرون ذلك حتى بادروا الى مغادرة المكان الذى جهزه أبو بكر بما قيمته إثنتا عشرة أقة من الفضه

— ٢ —

اللهم بارك فيهما . وبارك عليهما . وبارك لهما فى نسلهما ، اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . محمد رسول الله .

أميمة مولاة على بن أبى طالب ، تضع أمامه سفرة الطعام وهو مطرق مهموم . لا تدرى أتفكير فى مستقبل الدعوة وهب لها نفسه منذ صباه ، أم شعور بالوحدة تلف قلبه بوحشة لا عهد له بها . قبل أن يبلغ الحلم ، أم مغالبة للغيظ والحنق عليها بعد أن قضت ردحا من الليل خارج داره . اعتمادا على تسامحه الذى تعودته

لاحظت أميمة على سيدها ذلك ، فراحت تقدم له ما عندها من خبز وبلح وشيرج . وهى صائمة عن الكلام حتى بادأها الحديث

— أين كنت يا أميمة ؟

— كنا نزف سلمى بنت عوف ، إلى سليم بن عبد الدار . فى معرس (١) اجتمع له سكان يثرب فمدت الأسمطة (٢) تحمل الشواء والصليق والحيس (٣) والفالوذج (٤) ورقصت الأحباش رقصاتهم الحربية المرحة ، وغنتنا (سيرين) ألحانها الشجية ، ومنها اللحن الذى سمعه رسول الله توقعه على مزهرها الساحر

---

(١) المعرس يراد به حفل كبير (٢) موائد الطعام (٣) تمر مخلوط بالزبد (٤) قمح مقشر طهى فى الماء والسكر واللبن

هل على ويحكم إن لهوت من حرج

على — محتدا — صه يا لعينة أتتخلفين عن خدمتى ، ثم تكذبين ، وهل يصغى رسول الله إلى مزمارة الشيطان (١)

أميمة — قد والله سمعها وتبسم لها وقال . . لا حرج إن شاء الله

على — يبتسم — ثم ماذا ياخبيثة ؟

فدنت أميمة من سيدها وقالت هامسة

ولقد سمعت سيدى ـ همسا ـ أن أبا بكر قد خطب إلى رسول الله ابنته فاطمه ، فأبى عليه ذلك ثم خطبها إليه عمر بن الخطاب ، فأبى عليه ذلك . فما يمنعك — سيدى — أن تأتى رسول الله فتخطبها لنفسك إليه

فزفر على لحديثها زفرة طويلة ، تحمل موجات من الأسى لفقره والحنين إلى مصاهرة حبيبه وابن عمه ، ثم قال لمولاته بعد صمت

— ليس عندى ما أصدقها به ، ولا أملك إلا درعى الذى وهبنى إياه رسول الله

أميمة — إنك إلى رسول الله حبيب إلى نفسه ، قريب إلى قلبه ، سليل أبى طالب عمه . نصيره منذ مبعثه ، فداؤه حين مهجره ، وجنديه المجلى فى ملاحمه ، وأخوه فى الدنيا والآخرة ، وأهل لفاطمة الكاعب اليانعة ، فاذهب اليه . واعرض الأمر ، عليه فانك إن جئته زوجك

على — أخشى أميمة أن . . .

---

(١) كان ذلك قبل علمه بالحكم الشرعى فى إباحة السماع

أميمة — تقاطعه — لا تخش شيئا — سيدى — انه أدرى منك بحالك ، وانه أهل لحل معضلة الصداق .

* * *

أميمة — تطرق باب فاطمة بنت رسول الله ثم دخلت عليها مسرعة فرحة وبادرتها الحديث — بشراك سيدتى

فاطمه — يشرك الله بخير . ماذا ؟ أنصر للمسلمين جديد ؟

اميمة — انه نصر بلاشك ، غير أنه من نوع جديد ، انه نصر لقلب كبير برحت به الوحشة ، وأضناه الحنين الى شريكة كريمة وفية ، ومن أكرم وأوفى من بنت المبعوث رحمة للعالمين

فاطمة — ماذا وراءك — اميمة — تحدثى بغير إطالة ولاديباجة

أميمة — لله درك سيدتى .. أما علمت شيئا عنها بعد ؟

فاطمة — لا ورب الكعبة

اميمة — لقد قبل رسول الله خطبتك منذ قليل

فاطمة — مبتسمة — ويحك لمن ياترى

أميمة — لاخيه وفدائه على بن أبى طالب

فاطمة — شاهقة — على ؟! وكيف تم ذلك

أميمة — ذهب اليوم الى رسول الله يحمل من أمره ما يحمل ، ولكن ما كادت تطالعه مهابة الرسول فى مجلسه حتى جف لعابه وتعطل لسانه ، وكلما دفعته الرغبة الى الكلام عاقته مهابة الرسول

فيحمر وجهه خجلا، ويطأطىء رأسه استحياء، فأحس رسول الله بما يعتلج فى نفسه، فقال له ماجاء بك ياعلى ؟ ألك حاجة.. فلم يستطع على الرد، فقال له الرسول وهو يبتسم جئت تخطب فاطمة، فمسح على عرقه ثم قال نعم، فقال الرسول وهل عندك شىء تستحلها به، فقاله على لا والله يارسول الله، فقال له الرسول ما فعلت بالدرع الذى سلحتكها، فقال على عندى، والذى نفس على بيده، انها لحطميه (١) وتقوم بأربعمائة درهم، فقال له: قد زوجتك فابعث بها: فقال عمر: أنت لها ياعلى وقال أبو بكر على بركة الله وسنة رسوله. وقال عثمان:

فاطمة — مقاطعة — حسبى حديثا يا أميمة

ثم حملت فاطمة رأسها بين يديها، واستغرقت فى عالم من التفكير والهموم، ثم لم تلبث أن أجهشت بالبكاء، فأظلمت الدنيا فى وجه أميمة، وتحطم أملها فيما كانت تنتظره من سيدتها، وحارت بهديتها التى تحملها ماذا تصنع بها، وراحت تفكر هل من الحسن مغادرة الدار على مافيها من أحزان، أم تحاول معالجة الموقف وفتح باب التفاهم فيما أدى إلى هذه النتيجة الغير منتظرة. وأخيراً تذرعت بالأناة والصبر وانتهزت فرصة هدأ فيها نشيجها وحادثتها

---

(١) بضم الحاء وفتح الطاء نسبة الى حطمة بطن من عبد قيس عرفت بصناعة الدروع.

— إنى لآسفة — سيدتى — إذا كنت قد أخطأت الهدف وأسأت فيما أردت به إزجاء السرور ، غير أنى لا أرى فى ابن أبى طالب ما يدعو إلى كل هذا الأسى ، إنه شاب فاره العود مشرق الطلعة وسيم الوجه . سمح الخلق . كريم النفس . شجاع القلب . جندى مطواع ، فالح زراع ، ولعله أكفأ من طلبوا يدك إلى رسول الله ، وأنى لأبى بكر فى شيخوخته ، وعمر فى جهامته ، من على فى شبابه ودماثته ، على أن عمر وعليا فى الحياة سواء ، كلاهما يعيش من كد أسرته فى المزارعة والمساقاة ، ليتفرغ لأمر الدعوة ، وإذا كان أبو بكر من أصحاب الجاه والثراء ، فان الله قادر على أن يجعل من فقر على غنى ، ومن حاجته فضلا وسعة ، وهو على كل شىء قدير

سكتت أميمة بعد ذلك ترقب وقع حديثها فى نفس سيدتها ، فلم تر إلا الدموع تتابع ، والنشيج يقطع الأنفاس ، فيئست أميمة من النجاح وعراها من أجل سيدها حزن عميق ، فهمت بالخروج . لولا أن دخل عليهما رسول الله متهلل الوجه باسم السن ، فرأى أحب بناته إليه على هذا الحال ، فقال لها بعد أن عرف من أميمة سر بكائها

مالك تبكين يافاطمة ، فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما ، وأفضلهم حلما . وأولهم سلما

فكف بكاؤها وافتر سنها عن بسمة مسعدة ، أشبه ماتكون

بيسمة العين الثرة فى الواحة المجدبة ، فحلت بسمتها فى نفس رسول الله كما تحل جرعة الماء على الكبد الصادية ، فى الساعة الهاجرة ، ثم ربت على ظهرها وهو يقول (اللهم بارك فيهما وبارك عليهما)

* * *

وكان السائر ليلة الزفاف فى أفنية يثرب . يراها ولقد لبست ثوبا قشيبا من الأنوار الزينة ، تنبعث من المصابيح الزيتية متراقصة متدلية من اعناق النخيل والأغصان . كالقلائد فى نحور الحسان . وسلاسل البخور المصرى تنبعث من مجامرها فيفيض بأريجها الفضاء ، ثم تتلاقى وتنسج من خيوطها فوق يثرب . سحابة شفافة تظهر من خلالها النجوم والكواكب . كما يظهر وجه الحسناء وسط وصيفاتها من خلال الخمر (١) البيضاء . ثم لا يلبث بعد ذلك أن يرى قطارا من الابل يقوده كبار الصحابة فى ثيابهم البيض . وسيوفهم العضباء . وفى وسط هذا القطار جمل ضخم كأنه قبة عالية ، فى مسجد مستطيل فسيح ، صنع هودجه من الفراء وزينت نواحيه بسعف النخيل وأغصان الزيتون. تتعانق افنانها وتتلاقى أوراقها على خطا الابل وهزاتها . كانها تشارك المسلمين أفراحهم وتشاطرهم ميدانهم وطربهم . وبالقرب من هذا الهودج أبو القاسم صلى الله عليه وسلم . يرف بعطفه على احب بناته اليه فاطمة الزهراء

وفوق أكمة بالقرب من دار على بن أبى طالب وقف الحبر دانيال

---

(١) بضم الخاء والميم جمع خمار وهو النقاب

يرقب كل هذا بعين الاسى والحسرة ، على ما وصل اليه الاسلام من شأن فى نحو عامين ، ثم أخذ يقول لصاحبه وهو يحاوره

هذا زفاف على بن أبى طالب الذى جاء من مكة الى يثرب ماشيا لانه لم يجد ثمن الراحلة ، بالامس يصدق ابنة عمه فاطمة ٤٠٠ درهم وهذا أبوها بدوره ، يزفها اليه فى موكب من مواكب أكاسرة الفرس ويقدم لها — على ماعلمت — سريرا مشروطا وفروا كبيرا ، ووسادة من الجلد الثمين . وسوارين من الفضة ، وكأسا للشراب وهونا من نحاس . واناءين كبيرين للماء . وخمارا ثمينا

يوشع — ظننت محمدا يزف نفسه الى عروس ثالثة بعد سبعة أشهر من زواجه ببنت أبى بكر ! وعلى أى حال فمن أين لهؤلاء الآبقين (١) بكل هذا

دانيال — انه ماوطئت أقدامهم أرض يثرب حتى اشتغلوا بالمهن وكان من حظ ابن أبى طالب وأخيه وبعض أقاربه ، أن يشتغلوا بالزراعة فى أرض بعض أهل يثرب ، اللذين يدعونهم بالانصار وهم ليسوا إلا طائفة من البلهاء . يقدمون أموالهم وتراث اجدادهم لهؤلاء المشعوذين باسم التعاون والاريحية والاخاء

يوشع — وكم عمر الفتى والفتاة ؟

---

(١) الهاربين

دانيال — أما عمره فاثنان وعشرون سنه ، شاب فاره الطول مفتول العضل شديد المراس

وأما عمرها ، فخمس عشرة سنة وهى كما علمت من (يوحانز[1]) جميلة القسمات ، مشرقة الوجه ، دعجاء العين . هيفاء العود . وطفاء الاهداب

يوشع — وددت والله لو انى ذلك الفتى

دانيال — مذعورا — صه ياهذا فان ذرات الرمل تتسمع لهؤلاء المسلمين . وتتجسس لهم

* * *

فى ضوء مصباح خافت الانفاس بخيل الاشعاع ، وفى صمت رهيب تكاد تسمع فيه دقات القلوب مازجها الفرح بالخجل — جلس على بن أبى طالب فى زاوية من داره ، مطرقا حييا تكاد مسام جسمه الضخم تسمع وترى كل مايجرى حولها ، وان كان صوت الرسول لما يزل يرن فى اذنه بنصيحته له منذ ساعات (لاتحدثن شيئا حتى تلقانى)

وفى الزواية الاخرى ، جلست اسماء بنت عميس وأم أيمن بركة الحبشية قبالة فاطمة ، تحدثانها حديث المنى والاماني ، تسلية لها عسى أن تهدئا من روعها . وتنشلاها من استحيائها ، ثم دخل الرسول على الجميع وهو يقول

---

(١) إسم زوجة دانيال

ـ أها هنا أخى؟

أم ايمن ـ مازحة ـ أخوك وقد زوجته ابنتك ؟!

الرسول ـ نعم . . هو كأخى فى المنزلة والمؤاخاة ، فلا يمتنع على تزويجى إياه بنتى . . .

ثم أدرك الرسول ما عليه فاطمة من خجل ، فاراد أن يطرح عنها بعض ذلك ، فأمرها دون الجالسات أن تحضر له ماء ، فقامت تتعثر فى ثياب العرس واحضرت قعبا (١) فيه ماء ، فتوضأ ثم قال لها أقبلى وانضح من الماء على رأسها وبين ثديها ، ثم قال لها ادبرى وانضح منه على ظهرها وهو يقول (اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ثم نادى عليا وفعل به مثل مافعل بفاطمة وهو يقول (اللهم بارك فيهما وبارك عليهما . وبارك لهما فى نسلهما ... ادخل بأهلك باسم الله والبركة) ثم خرج عليه السلام يدعو الصحابة الى وليمة العرس. فأكلوا ثريدا ولحما وحيسا (٢) ثم انصرفوا بعد قليل من تناول الطعام وهم يتهانون ، الا نعيما الصحابى المزاحة المعروف ، فانه وقف يلعق أصابعه ناظرا إلى رسول الله من زاوية عينه وهو يقول ، أكثر الله أفراحكم . ليكثر حولنا ثريدكم وضأنكم

عتاب ـ قل وحيسكم وفالوزجكم ، فتضاحك الصحابة وهم منصرفون

---

(١) القعب اناء كبير كالقصعة (٢) تمر معجون بالزبد

من النار الى النور

ولد فى مهد العز ، ثم عزف عن عبادة النار
وأحس ظمأ شديدا الى روحانية من عالم سام ،
فدفع فى سبيل ذلك شبابه وراحته وحريته ،
حتى أسلم ، فاسترد كل ذلك وأرضى نفسه
وعاش سعيدا بدينه مجاهدا له حتى مات . .
ذلك هو سلمان الفارسى الصحابى المعروف

سلمان منا أهل البيت ... لو كان
الايمان بالثريا لناله رجال من فارس
وأشار رسول الله الى سلمان الفارسى

— ١ —

استيقظ بوذخشان (١) . فى الصباح الباكر وراح ينادى العمال ويستدعى البنائين . ويهيب بالصناع الى العمل فى محلته الجديدة التى سيجعل منها منزلا فخما . ودارا فسيحة أنيقة . تليق بدهقان (٢) القرية وحاكمها المطلق . وبينا هو يشرف على عملية الحفر . ويتعهد تقدم البناء ويراقب أشغال النقش والزخرفة للأبواب والنوافذ، إذ توقف فجأة عن الحركة، وعض شفته السفلى بأسنانه، وتذكر انه لم يخرج الى ضيعته (٣) بعد ، وأن هناك من المهام مايحتاج الى عنايته ، ومن المصالح مايفتقر الى رأيه وخبرته . فنادى بعض حراس القرية وقال لهم .

على بمابه (٤)

فجاءه ولده (مابه بن بوذخشان) محروسا ببعض الخدم ، وانحنى أمام والده تعظيما وقال

— لبيك يا أبت

بوذخشان — الى ضيعتنا فطف برحابها . وتفقد سوائمها وزراعها وشق رياضها وغياضها . وأرجو يابنى أن تكون قد عدت الى صوابك

---

(١) اسم والد سلمان الفارسى الصحابى المعروف (٢) حاكمها (٣) أراضيه الزراعية
(٤) ولده الذى سمى فيما بعد سلمان الفارسى ،

ورجعت عن غوايتك . وثبت الى ماعليه آباؤك وأجدادك . وسأدعك اليوم بغير رقابة . وسأطلقك بغير حراس ، ثم أدناه إلى فؤاده وربت على كتفه وقال :

ولعلك يابنى ترحم عطفى عليك ومحبتى لك . وتحقق رجائى فى أن تكون على الحق الذى عليه الجميع ولاتحتبس عنى ، فانك عينى التى أنظر بها ، ويدى التى أبطش بها ، وقلبى الذى أعيش به

— سأمضى ياأبت ، وسأكون فى ركاب الحق دائما

نحا (مابه) صوب ضيعة أبيه . فاسترعى آذانه وهو فى طريقه اليها . ترانيم المزامير . وألحان الأناشيد ، تنبعث بها أصوات المصلين داخل الكنيسة ، ملفوفة فى سحب البخور المعطرة ، وشذى العنبر والمسك . فوقف منصتا اليها تتنازعه عاطفتان . عاطفة الرغبة فى إرضاء أبيه وعاطفة الحنو إلى هذه الأناشيد الروحية ، تملك ألحانها عليه قلبه ومشاعره ، وكلما هم بالدخول تمثل له أبوه يناشده العطف . ويتوسل اليه بالمحبة ، أو هم بالانصراف . جاذبته هذه الأهازيج رخية شادية . فطغى صوتها على صوت أبيه ، وحنانها على عطفه وحنانه . وقادته فى النهاية بأحبالها . وأدنته بألحانها ، حتى ألفى نفسه أمام المذبح يستمع خاشعا . ويصيح هائما ويترنح مذهولا .

وبعد انتهاء الصلاة أخذ قسطه من النقاش والبحث . فى مواضيع

كان قد تحدث فيها من قبل، يلم بأطرافها . ويستقصى حواشيها . والرهبان به مغتبطون . وبدخوله فى دينهم فرحون مسرورون . حتى آذنت شمس النهار بالغروب . وزحفت سحائب الليل تدرج الكون فى ثوب من السواد. بينما والده يتلظى قلقا . ويضطرم انزعاجا. ويتابع إرسال خدمه وإيفاد حراسه الى الضيعة ، فما وقفوا له على ظل . ولا عثروا له على أثر.

فازداد قلق الرجل على ولده . وكثرت وساوسه على مستقبله . وثارت ثائرته على هؤلاء النصارى . الذين امعنوا فى أساليب اغرائه . حتى نسى توسل أبيه وضراعة أمه . وبطش الالهة المعبوده (١) ذات القوة والسلطان .

ثم جاء (مابه) أو سلمان الفارسى .كما دعى بعد ذلك . ووالده يذرع الأرض امام منزله ذهابا وجيئة . وقد انعقدت على وجهه سحابة من الغضب والحزن . والناس هنا وهناك تنهنه من غضبه ، وتخفف من سخطه من حيث لا يعلمون سر هذا الغضب . فابتدره قائلا .

أين كنت يابنى الى هذا الوقت ؟

مابه — كنت حيث أمرتنى

بوذخشان — ولكنك لم تذهب الى ضيعة أبيك كما أمرتك .

مابه — ليس هذا كل ما أمرتنى به . وإنما أمرتنى بأشياء أخرى وهو أن أكون حيث يوجد الحق . فكنت كذلك — مقاطعا —

(١) يقصد النار

كفى لا تكمل قصتك فقد عرفتها وهيا الى مخدعك

دخل (مابه) وخلفه أبوه الى منزله وأغلقه فى شدة وغضب ، وخلف وراءه جيشا من الفضول والتساؤل ، عن معنى هـذا الكلام المقتضب وسر غضب حاكمهم إلى هذا الحد ، وسبب مقاطعته لولده وهو قطين(١) النار وأمامهم ، بهذه الشدة رغم ما عرف عنه من حنوه عليه ومحبته له ولـكن واحدا منهم لم يظفر بجواب

وقف بوذخشان بين حاجبي ولده . يرسل من نظراته أشعة الغضب منه والخوف عليه . ويرميه بزفرات الغيظ تحمل فى طياتها لهب المحبة والاشفاق ، ثم ترجم لسانه المستعصى مايجيش بنفسه قائلا

— أى بنى ربيتك صغيرا وروضتك كبيرا . حتى فره عودك . وسمقت قامتك . واستعرض منكبك . وأصبحت ارجى فيك المرذبان (٢) المنتظر لجيوش كسرى . فتعنو لك الجبـاه . وينعقد لسيفك النصر وتضفر على رأسى ورأسك أكاليل الفخار ، ولـكنك عزفت عن الجندية وعفت الجيش . وكرهت حياة النضال : فحطمت فى صدرى هذا الأمل ، وعدلت عن إحدى الحسنيين . وعكفت على التفقه فى دين آبائك والتمعن فى علومه ، والتقرب الى مقام ذات الجلالة . حتى غدوت لهـا قطينا . فقلت لئن فقد مكانه المرذبان فقد أدرك مقام الموبذان(٣) وسرنا وراءك وتعبدنا خلفك. وتوالت علينا الهدايا وتتابعت

---

(١) خادمها الخاص وهى وظيفته بمثابة الامام المقرب (٢) قائد الجيش

(٣) الخادم الخاص للنار وهو مركز دينى ممتاز عند المجوس

القرابين . فسجدنا للالهة شكرا ، ودعوناها أن تتم نعمتها على الجميع . ولكنك لم تلبث أن أصخت لصلصلة الجرس . وتمتمة الرهبان . وغمغمة القساوسة وصوت هؤلاء الشياطين . فحاولت أن أقطع حبل اتصالهم بك ، واتصالك بهم . فأودعتك عيون الحراس . وسلمتك لعناية الرقباء والخدم . فرحت اليوم تقضى سحابته عندهم . وتوثق الصلات بينك وبينهم . وكيف يكون المصير حينما يعلم الناس ذلك عن امامهم ويشهدون ذلك من موبذانهم

ثم أخذ (بوذخشان) بمعصم ولده مابه . . ومشى به إلى بيت النار على قدمين مرتعشتين ، ويدين مرتجفتين ، ثم وقف ينظر اليها بعين دامعة وفؤاد ذليل . ثم جثا على ركبتيه عندها وسجد وأطال السجود . وقد ظن أن ولده بجواره يقتدى به أو يجاريه رحمة به . ولكنها كانت صدمة هائلة ، حينما رفع رأسه فألفى ولده قطين النار بالأمس جامدا فى مكانه لا يحركه احترام ، ولا يهزه اعظام ، فخشى أن يصيبه منها غضب أو إيذاء ، فازدادت رجفته ، وحبا نحوه حتى كان عند قدمه ، وقال فى صوت مذبوح ضارع .

أى بنى . سلها العفو والمغفرة ، تب عند بابها وأنب . واسجد لها . عساها أن تستجيب .

فلم تتحرك فى جسم ذلك العملاق عضلة واحدة

فأطرق الرجل، وبكى إشفاقا على ولده، واستقبالا للقضاء المنتظر ثم عاد إلى شجاعته. وقد خيل اليه أن الهته واسعة المغفرة، وأنها ستمهل ولده العاصى العنيد رحمة به، وإشفاقا عليه، ثم قال:

أى بنى ألا يرضيك بعد كل تفقهك وعلمك، أن تكون عبداً لهذه النار. ألا تنظر اليها شعاعة حارة، وللحرارة أثرها فى الاصطلاء (١) وفى الزراعة والنبات، فتاكة بالظلام. شعاعة بالنور. وللنور آثاره العظيمة بين المخلوقات، كاوية لمن يدنو منها، لاذعة لمن يمسها بأذى. شاوية منضجة للطعام. فتحيل النىء الدفر، طعاما لذيذا شهيا، أنظر إلى دخانها يسمو إلى السماء بغير مرسل له ولا باعث. وتتراقص ألسنتها دليل الحياة والقوة. فماذا داخلك من شك فى عظمتها بعد هذا كله؟!

فتحركت شفة الفتى الهادىء فى عنف واتزان وقال:

ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا؟!

— وكيف هى لا تسمع يابنى، وهاهى ذى تتأود من حديثى فرحا. وتتقد من نقاشك غضبا. وكيف لا تبصر. وهاهى ذى أنوارها تملأ فناء المنزل نورا. وبهجة وسرورا، وكيف لا تغنى شيئا وفيها كل ما قد ذكرت لك!!

مابه — يا أبت: ألست الذى جمعت لها الأحطاب، وقدحت

---

(١) التدفئة

شررها بحك الثقاب ، وأذكيت نارها بيدى . وألهبت جذوتها بزفرتى . فأنا الموجد لها . والعامل على خلقها . وكيف يصير المخلوق خالقا والموجود واجدا ، ومن الذى خلقنى قبل أن توجد هذه النار ؟ لابد إذن من أن يكون هناك خالق سواها ، وموجد غيرها أوجدنى كما أوجدها . وخلقنى كما خلقها .

— ولكنك يابنى لست الموجد لها . بل هى موجودة هنا وفى كل بيت . لم تخمد فى ليل أو نهار ، منذ مئات السنين ، فهى موجودة قبل وجودك ، ومشتعلة قبل خلقك . . .

مابه — هبها موجودة قبل آلاف السنين . فهل وجدت بنفسها أم أوجدها موجد ؟ وعلى فرض أنها وجدت بنفسها فانه يكفى أن تدعوها دون وقود . حتى تنطفىء وتذوب ، وتصبح رمادا تذروه الرياح

بوذخشان — يرتعد لشدة وقع الكلام فى نفسه ، وخوفا على ولده من النار ، أن تحل به نقمتها . أو تصيبه بسوء ، ثم انتصب واقفا وركع ثم جعل النار قبلته ، وأخذ يتراجع إلى الوراء . وولده خلف ظهره يسير بدفعه ، وكلما صدر عن النار أصوات الشرر ، وثب من مكانه فزعا وظنه صوت النقمة . ينبعث على ولده ، وظل فى انحنائه وتراجعه حتى خرج من بيت النار . ثم سقط على الأرض فى شبه إغماء . وجلس ولده مابه ، بجواره يمرضه ويدلكه ، فنظر أبوه اليه بعد ان استفاق قليلا وقال :

أى بنى . هانحن أولاء قد بعدنا عن بيت النار وسلطان الاله ، فحدثنى بدخيلة نفسك ، وحقيقة أمرك ، فقد خفت عليك سلطانها داخل دارها . والآن تستطيع أن تحدثنى بما أهمك .

مابه — لقد أهمنى والله ياأبت أن أعيش فى نطاق من الحرس واقضنى أن لا أجاب على ما أسأل . حاكيتك طفلا . واقتديت بك ناشئا . وأسلمت قيادى يافعا ، فلما تفتحت عينى على ماحولى سألت نفسى ما هذه الأجراس الداوية ، ولمن تدق ومن تنادى فلم أجب . ثم سألتك عن ذلك . فغمغمت مرة ، وتمتمت أخرى ، وتصامت ثالثة ، ثم قلت لى بعد ذلك . هذه أصوات الشياطين تعذبهم النار ، فعدت إلى نفسى كرة أخرى متسائلا ، ولم تنبعث هذه الأصوات فى انتظام ؟ ولم كانت دقاتها موزونة محدودة ، ثم عولت على الخروج لمعرفة كل ذلك . فان أحب شىء إلى الانسان ما منع

فكنت ارتدى ثياب الخدم أحيانا ، وثوب الأكارين (١) أخرى وأهرع إلى حيث تنبعث هذه الأصوات . فألفيت عبادا ناسكين وأطفالا ضارعين . ونساء باكيات . وشيوخا راكعين . يقولون مالا يقول الموبذان . ويعرفون مالا يعرفه كسرى أنوشروان ، فامتزج قلبى بحبهم ، وخالط دمى معتقداتهم ، وعرفت أخطاء المجوس وأوهامهم

---

(١) الاجراء

وأصل النار وحقيقتها ، وقوامها ونهايتها . فأدركت مجافاتها . وبغضى لها وقطانها

بوذخشان — فزعا — لاتجهر بهذا يابنى لئلا تسمعنا . . .

مابه — يواصل كلامه — ثم حاولت مضاعفة الارصاد وتكثير الحراس ، فنجحت فى حرمان جسمى من الخروج والاتصال بهؤلاء الملائكة الابرار ، ولكن روحى كانت تطوف بهم . وتهتف بتعاليمهم . وتهيم بذكرهم

بوذخشان — جازعا . . وبعد

مابه — وبعد فلن أعود الى الجهالة ، ولن أعفر جبهتى فى تراب الحطب . وإنما سأسجد لرب الفرس وخالق العرب

نهض (بوذخشان) مهموما . وبات ليلته محزونا . وولى وجهه فى الصبح شطر النار . فوقف عندها خاشعا ، ورفع يده ضارعا . وطلب منها هداية ولده . وتوفيقه الى طريق الموبذان كما كان ، ثم خرج إلى ردهة منزله ، وجمع خدامه وحراسه ، وأمرهم أن يشددوا على ولده الرقابة . وأن يضيقوا عليه مساربه ، وأن يضعوا الحديد فى رجله عند الاقتضاء . وقد كان الذى أمر به . فلم يعد مابه يرى فى الكنيسة عابدا أو مصليا . ولا دارسا أو مستمعا . ولا مستفسرا أو مناقشا . حتى أهم أمره جماعة الرهبان . وطال تفكيرهم فيه فقال أحدهم لصاحبه وهو يحاوره

أرأيت أننا خسرنا بغياب مابه فتى قويا وشابا ذكيا

بطرس — خسرنا فرداً كـكل فرد من هؤلاء الذين بذلنا لهم من أنفسنا لسعادتهم، ثم راحوا بلا أوبة ولا رجوع

بولس — انه وحقك ليس واحـدا من هؤلاء المجوس الذين يتظاهرون بالاقتناع، وهم بينهم وبين أنفسهم يقولون انا على آثار آبائنا لمقتدون. ولا تنس أنه إبن حاكم القرية. وأنه كان قطينا للنار، وأن دخوله فى دين اليسوع فتح مبين

إذن ما السبيل اليه. وقد علمت ان أباه قد حبسه لا يخرج من داره ولا يتصل بنا.. فلماذا لا نتصل به

بطرس — وكيف...

بولس — على بثياب الخدم. أو أردية الا كارين حتى استطيع أن أخالس الحراس. وأتصل به. وعندها يفعل الرب مايشاء ويختار

* * *

وفى منزل الحاكم (بوذخشان) التقت عين التلميذ مابه بعين الراهب بولس، فى غفلة الخدم، فكاد يطير من السرور، لولا أنه تجلد واتأد وتقدم أمام أستاذه مثقلا بقيوده إلى حجرته الخاصة. وهناك القى التلميذ الطاهر نفسه بين أحضان أستاذه يعانقه، ويقبل منه كل ماتصل اليه شفته، ثم ابتدره قائلا

أرأيت كيف جرت على عقيدة اليسوع، من تضييق وسجن واغلال

وكيف فقدت مكانتى . وسلطانى وهيبتى . ولكن ذلك لايساوى شيئا مذكورا فى سبيل راحة ضميرى ، فان راحة الضمير هى الهناءة وهى السعادة وهى نعيم الدنيا وجنة الآخرة

بولس — يضم راحتيه ويرفعهما الى السماء ويقول

سيرعاك الرب فى السماء . وسيمدك بالروح القدس الذى نزل على يسوع المسيح ، ثم ضمها الى جبهته وأطرق ، فقطع مابه صمته وقال

— أين أصل هذا الدين يا أبتاه

— بولس — فى الشام يافتى

مابه — استحلفك بمن تحب وتقدس ، اذا قدمكم من الشام ركب أن تؤذنونى به ، فانى أريد السفر فرارا من عبدة النار ، وحبا فى العقيدة التى وهبت لها قلبى ونفسى

بولس — سيوافينا بعد يومين ركب من الشام ، فمتى قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم آذنتك بذلك ، ثم استأذن وخرج من حيث أتى ، وبعد سبعة أيام وافاه مرة أخرى ، فالفاه حائرا قلقا ، فهمس فى أذنه قائلا . بارك لك الرب فى السماء ، وآذن فى الافراج عنك غدا فى قافلة من نصارى الشام ، فاستعد للسفر فى مطلع الفجر

وطلعت شمس النهار على هذه القافلة وهى فى طريقها الى بيت المقدس وبين أفرادها مابه طليقا من القيود حرا من العبودية والرق .

— ٢ —

وكان اليوم أحدا، وقد أخذت الناس تلبي نداء النواقيس فى اشكال غير منتظمة ، هذا شيخ قوست ظهره السنون يدب على عصاه ، وخلفه زوجته قد انثنت بدورها تسير على أقدام السلحفاة . وأولادهما حولهما يظلاهما بروح العطف والاشفاق ، ويستبطئاهما على مضض يمازجه الصبر والتجلد . وذاك شاب فى مطالع العمر مشرق المحيا لامع الجبين يتبادل هو وزوجته أحاديث الهوى . ويهامسها صدى الأمانى العذاب .. وتلك أرملة تسير مطرقة كأنها تبحث عن فقيد ، أو تسبح فى ظلام دامس . وكلما أمعنت فى السير مدت يدها عن يمين وشمال . كأنها تبحث عن صخرة النجاة . حتى اذا لم تصب شيئا نظرت وراءها وأهابت بولديها الصغيرين . ليكونا تحت جناحيها تدرا بمرحهما عاديات الوجوم ، وتبدد باشراقهما سحائب الحزن الحليك .

وهؤلاء صبية جمعتهم روابط الجوار ، وأقضتهم وحشة المنازل يتمازحون ويتباذلون . ويتفاخرون فيتدافعون ثم يتصافون

وهناك عند المذبح وقف الاسقف الأكبر ببردته الحريرية البيضاء المترامية الذيول ، تحت تاج من القز الموشى بالذهب ، والصليب مشرع فى يده ، حتى وقف بين عينيه . وسحائب البخور تنعقد وتنفرد هائمة فى سماء الكنيسة . والشموع فى صفين منتظمين . كأنها فرقة الشرف وعلى جانبيه عقدان . من الصبية كأنهم لؤلؤ منثور . أضفت عليهم

أردية الشام الناصعة نورا فوق نور . وأسبغت عليهم أوشحة السدانة (١) الغالية جمالا فوق جمال . والمصلون فى اختلاف أزيائهم وأسنانهم وأجناسهم وعواطفهم ، قد نسوا كل شيء ، وشغلوا بشيء واحد ذلك هو الصلاة . فكنت تراهم فى وقفتهم واطراقهم كأنهم التماثيل ، لولا تساقط الدموع وتتابع الزفرات ، أومذنبون يتلى عليهم حكم الاعدام بين شرود وذهول . لولا عبيق المسك . وتراقص الاضواء . وتاج الاسقف واختفاء وجه الجلاد . ثم تسمعهم بعد ذلك يرددون الأناشيد العذبة . والألحان الشادية . فى لحن منتظم . ومقطع متناسب . ومقياس محدود وجرس موزون . فينسون وجودهم ليسبحوا فى عالم الأرواح . ويتركون أشباحهم ليتعلقوا بأسباب الفلاح . حتى اذا وصلوا الى نهاية المزمور وهبطوا إلى عالم الحقيقة ، وعادوا إلى أماكنهم . أخذ الاسقف الأكبر يقلب أوراقا فى يده ، فتهبط عينه بين شقيها ، ثم تعود فترتفع ثم تهبط ثم تعود باحثا فيها عن فصل معين ، فلما أدركه أخذ يقول .

« ياسعدكم يافقراء لان لكم ملكوت الرب . . ياسعدكم ياجعانين لأنكم ستشبعون .. ياويلكم يا أغنياء لأنكم نلتم عزكم .. ياويلكم ياشبعانين لأنكم ستجوعون ، فاللى عنده توبين يدى اللى معندوش . لأن دخول الجمل فى خرم الابرة أسهل من دخول الغنى فى ملكوت الرب (٢) »

قال الاسقف هذا وأخذ بعضهم ينظر إلى أزياء بعض . والفرحة

---

(١) الخدمة الخاصة (٢) عن أنجيل لوقا

تجول فى أعين الفقراء . لقربهم من ملكوت السماء . فأنقذ الأغنياء أنفسهم من النظرات الشامته ، وراحوا يقربونها من أسباب الجنة بالتزاحم حول صندوق الصدقة يقذفونه بالدراهم والدنانير

ولم يكن الانجيل على مافيه من تاريخ ودراسة ، وعظات ومكارم يحمل فى نظر الاسقف ، إلا آيات الاحسان والصدقة والتخلى عن فضة الدنيا وذهبها ، يرددها فى أيام الآحاد . وفى المناسبات الدينية والأعياد حتى سئم بعض الأغنياء الصلاة فى كنيسة القيامة (١) خلف هذا الاسقف . وأخذ الفقراء ينظر بعضهم إلى بعض ، وكل منهم يظن أن الاسقف يخص غيره بالبر والصدقة . دون أن يتحدث فى ذلك إلا الى نفسه ، ثقة منهم بمقام الاسقف الأكبر ، ورضاء بالفقر ، ورغبة وحبا فى ملكوت السماء الذى وعد به يسوع المسيح

واستيقظ أهل أورشليم (٢) يوما على صوت أجراس حزينة . ثم علموا أن أسقفهم قد انتقل إلى الدار الآخرة فزحفوا مثنى وجماعات إلى كنيسة القيامة ليودعوه إلى المقر الأخير

وما أن اشتعلت الشموع ، وارتفعت سحب البخور . وتعالت الاصوات بألحان المزامير ، حتى وقف فيهم ذلك الفتى المديد القامة العريض المنكب . المتناسب التقاسيم . والذى كانوا يشهدونه دائما فى

---

(١) قد تكون هذه الكنيسة أقدم الكنائس . وقد بنيت فى المكان الذى يزعمون أن المسيح قد صلب فيه . (٢) القدس اليوم

ركاب الفقيد . فظنوه تلميذا أسيفا يودع أستاذه بكلمة ، أو صديقا عزيزا سيرثى صديقه بعبارة . أو تابعا أمينا فاض به الحزن وبرح به الأسى ، فانتصب يلقى على خطبه دمعة سخينه ، أو زفرة حارة ، ولكن ما أشد دهشتهم حين سمعوه يسمه بالخيانة ، ويصفه بالجشع . وينعته بالانانية وحب الذات ، فكادت تمزقه نظراتهم . ويحرقه غيظه ، فصاح به أحد الشبان حانقا :

من أنت حتى تصف والد الجميع ، ومربى الكل . وأستاذ المسيحية بمثل هذا القول الذى تقول ؟

أنا يا سيدى مابه المجوسى . خاصمت قومى فى الله ، وحرمت نفسى عطف الأمومة وحنان الأبوة من أجله . وزهدت فى وطنى ، ورغبت عن ثروتى الطائلة فى سبيله .. كنت مجوسيا أعبد النار . وتقدمت فيها حتى وصلت إلى درجة القطين . ثم أدركت أن عبادة النار سفه فى العقل وتزوير عليه . فاتصلت بقساوسة النصارى (بحى) (١) فشفونى من مرض القلق ، وأبرأونى من علة الحيرة . وأمدونى بما ارتاحت له نفسى ، وسكن له روعى . وهامت فى سمائه روحى ، فعلم والدى بذلك . وحاول هدايتى ففشل . فأحاطنى بالرقباء . وحرمنى مغادرة المنزل وأغلنى بمقامع (٢) الحديد . فمررت مع إحدى القوافل . إنقاذا لنفسى ومناشدة لحريتى . وراحة لبالى . وغذاءا لروحى ، ثم سألت الغادين والرائحين . عن أفضل أهل هذا الدين علما فقيل أسقف هذه

---

(١) قرية مابه من أقليم أصفهان (٢) الأغلال .

الكنيسة المسجى بينكم الآن . فدخلت فى خدمته لأتعلم منه ، وأصلى معه . فما سمعت إلا آيات الاحسان والصدقة . ولا رأيت إلا اكتناز الأموال لنفسه ، بينما ضجر الأغنياء ، وما انتفع الفقراء .

الأغنياء يتغامزون ! . . . والفقراء ينظر بعضهم إلى بعض ويتساءلون . .

فأين علمه من عمله . وأين مقامه من حقيقته . وأين المسيحية من مسيحيته . وأين الأمانة من أمانته ، وأين هو مما يأمر الناس به ، وإلا فكيف أترك عبادة النار إلى عبادة المال وكيف . . .

الشاب يقاطعه قائلا .

لعلك حانق لبخله عليك وحدك

مابه — ها هو ذا جناز ضم أغلبية أرشليم ، والفقراء بينهم كثر . فليعترض من ناله من مال الاحسان شيء ، وليكذبنى من أصابه منها سهم ، ولا تنس اننى لو كنت من طلاب المال ، لكان لى من ثروة أبى ماهو خير وأكثر من أموال الصدقات ، ولكنى ضحيتها قربانا لعقيدتى

أصوات — أطلعنا إذن على مكان كنوزه وإلا كنت كاذبا

الفقراء — أطلعنا وحدنا فهى أموالنا وحقوقنا الموهوبة .

الأغنياء — وكيف ذلك وهى فلذات ثرواتنا . وتراث أبنائنا

— ضوضاء وجلبة

طار الخبر إلى المدينة وطاف بها ، فجاءت بقيتها فى ذراريها وخدمها لتتأكد من الخبر المفاجىء .

واشتدت الضوضاء والجلبة ، وكادت المشادة بين الفقراء والاغنياء تؤدى إلى مذبحة هائلة ، لولا أن وقف مابه مرة أخرى وقال

نحن فى بيت الرب فيجب أن نحترم قدسيته . وأن نجل بيته ، ويجب أن نعرف أن هذه الأموال بذلت من أجل الله ومن أجل عياله الفقراء . فهم ذووها وأصحابها ، ولا يد لغنى ولا سلطان له عليها ، فلنعرفها مكانا وعددا . ولنقف دون اقتراب أحد منها ، حتى إذا استخلفنا أسقفا آخر قام يوزعها بين الفقراء بما يرى حتى تنفد

الشاب — هذا لو صح ماتدعيه

مابه — دونكم والكنز ، على أن تنتخبوا أفراداً يكونون من أقواكم عوداً . وأعظمكم نفسا . وأكثركم أمانة ، حتى يقوموا على حراسته ويسلموه إلى خليفة الفقيد ، ليقوم بتوزيعه على مستحقيه

وفى بيت فسيح خرب . وعلى باب حجرة مظلمة رطبة ، تنبعث منها رائحة كريهة ، انتثر فى أرجائها بعض أوراق صفراء جافة . لا يستر أرضها إلا ضفائر السعف ، ولا يزين جوانبها شىء من جمال أو نقش وقف مابه ينادى بحراس الكنز ليوزعهم حوله ، وليقفوا دون مطامع الناس وهجومهم عليه . وبعد أن أحكم دركهم ولمس منهم عزة النفس

وقوة الجسم . حفر فى مكانه قليلا ، ثم دفع أغطية من خرق بالية وسعف متفرق . وأغصان برتقال جافة ، ثم سمح لمن أراد رؤية الكنز فى قلاله السبع جماعات جماعات ، وهم بين مأخوذ ببريق الذهب والفضة وبين حانق على عمل هذا الرجل

فثارت ثائرتهم على جثته ، فأوثقوها بحبل طويل ليتمكن الجميع من الاشتراك فى مهانته وسحبوها على الارض تفرى جلده وتمزق أهابه ، ثم حملوها على صليب ليجهزوا على ما بقى منها ، ثم أخذوا يرجمونها بالحجارة حتى تطايرت أشلاء ومزقا فى كل مكان . طعاما للحدأة وأفلاذا لجوارح الطير وحيوانات الجبال

ثم استخلفوا عليهم أسقفا آخر يقال له بطرس ، وملكوه أموال الكنز يوزعها على مستحقيها ، وتتلمذ عليه مابه وأخذ عنه مدة غير طويلة :

وبينما مابه يمشى فى أفنية أرشليم واذا بالشاب الذى كان يناضله يوم موت الأسقف يستوقفه قائلا

نعم بالك

مابه — وسعدت أيامك

يوحنا — كيف حالك يامابه

مابه — حمدا للرب فى السماء

يوحنا — ألا من كنز جديد ؟ !

مابه — لا واليسوع الحى ، انه لخير رجل يصلى لله ، زاهدا فى نعيم الحياة ، يقوم الليل ويدارس بالنهار ، ويؤدى حق اليتيم والمسكين طاهر اليد ، عف الجيب نظيف النفس .

يوحنا — لعل فيما أخذ به سلفه عظة له

مابه — فى الحق انه عابد بطبعه متقشف بفطرته

يوحنا — لعلك لهذا تحبه

مابه — بل أعبده

يوحنا — كأنك تركت عبادة النار إلى عبادة الأجسام ! ؟

مابه — باسماً — يالك من ذكور العبادة لله ، ولكنى فى الواقع أحبه حبا جما لورعه وتقواه .

ثم أطرق مابه طويلا ، فقطع يوشع عليه اطراقه قائلا

مايحزنك يامابه ؟؟ أيحزنك أنك غريب ؟ وهل نال واحد من أبناء البلاد من الحظوة والمكانة بين الناس - بعد الأسقف - ما نلته أنت ؟

مابه — لا يحزننى شىء من ذلك فأنا الذى آثرت الغربة والبعد عن الأهل ، على عبادة النار وإنما يحزننى أن الرجل يشكو داء دفينا وأخشى على حياته . بل أخشى أن نفقده فنفقد بفقده التقى والورع . .

يوحنا — لا كان الذى تقول

مابه — هذا ما هو كائن

ثم تصافحا وانصرف كل الى وجهته التى قصد

دخل مابه على الأسقف الأكبر بطرس وهو يتلمس صوته . ويتسمع أنفاسه ، ثم وقف عند قدمه لكثرة العواد . وعينه تذرعه طولا وعرضا . وقلبه مودع بين جناحى الخوف من العاقبة المحتومة . والرجاء فى الشفاء القريب أو البعيد ، ثم جلس حيث هو واقف وضم راحتيه إلى بعضهما ، ثم ادناهما من جبينه وراح يصلى لأستاذه ومربيه ويدعو الرب أن يخفف عنه ما نزل به ، وأن يدنى منه يوم شفائه : ولكن المنية المحتومة كانت تجثم عند الأبواب فى انتظار انصراف الزائرين . .

وما عاد الزائرون إلى منازلهم . وكلهم أمل وضراعة فى الشفاء . حتى دنا مابه القوى من رأس أستاذه ، وانحنى عليه يخاطبه بشفة مرتعشة . وينظر اليه بعين غريقة فى الدمع والأسى ، ويحنو عليه بقلب واجف يفيض بالحب والحنان . وما أغلى دموع الجبابرة الأقوياء . وأحر زفراتهم عند الخطوب ، وأشدهم جلداً على احتمال الكوارث . لولا أن الفتى العملاق كانت تسكنه روح عملاقه . ونفس حساسه . وعاطفة جياشه مرهفة . لم تؤثر فيها قسوة المجوس . ولم يدمغها طابع الفرس . فأشفق المريض على عاطفة تلميذه تحترق . وأنفاسه يشم منها

رائحة الشواء . فامسك بيده وقال

أتكره ريحانى وراحتى . وهناءتى وسعادتى . أتجزع من لقاء الرب فى علياء السماء ، غدا سنجتمع . وقريبا سنلتقى .. فلم يجبه مابه بغير الدموع تتأرجح فى عينه كالزئبق . وبغير شفة تتمرغ فوق راحته . فتستوعبها لثما وتقبيلا . ثم غالب أعصابه وحزمها ثم قال

لقد احببتك حبا لم أحبه لأحد قبلك ، فالى من تكلنى وقد حضرك ماترى من أمر الله ، وإلى من توصى بى وبم تأمرنى . فقال له

أى بنى والله لا أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه . فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل يدعى ابراهيم . وهو على ما كنت عليه ، فالحق به . إذا قضى الله على بقضائه

* * *

هذا مابه سليل المجد . . وربيب النعمة . يقود بقراته ونعاجه إلى الحقل كأى راع أو زارع . وهو بهذا هانىء سعيد . يسبح الله فى طلعة الشمس باسمة للكون . ناشرة ذوائبها الذهبية عليه ، زافرة بالدفء والحرارة ، تطهر الأرض وتبعث الحياة والنماء . ويعبد الله ويقدسه كلما أدار نظره فى ذلك المحيط السندسى الفاتن تشقه جداول الماء ناصعة كصفائح الفضه . متعرجة كالافعوان . تقوم على حراستها صفوف الأشجار تتأود فى يد النسيم . وموا كب النخيل ، تميد فى ملتقى الرياح . قد شدت اليها زمر الأبقار ، وطوائف الابل ، تطوف بها وفود

الغنم وادعة هادئة . وتغرد فوقها أسراب الطيور صادحة شادية

كل هذا حوله ، جعل من الحقل معبداً ، ومن أيام الاسبوع جميعا يوم (أحد) شأن القلب العامر بالايمان . والنفس الجياشة بحب الله وعبادته وتقديسه

احتبى مابه يوما تحت نخيلات كان يساقى عليها (١) وخلفه بقراته وشوياهاته ، يستذكر مسقط رأسه ، ومطارح صباه ، وحنو أبيه ، ووجد أمه وفراره بدينه وحريته . . وتطوف حوله ذكريات الاساقفه الصالحين وقضاء نحبهم جميعا بين يديه ، فقطع صاحبه لوقا حبل تفكيره عليه وقال له

نعم بالك يامابه

مابه — نعمت وسعدت

لوقا — مالك منفردا مهموما

مابه — لاشيء . . غير أنى أندب حظى وأنعى سعادتى .

لوقا — ألست هانئا فى حياتك ، سعيدا بمزروعاتك وبقراتك

مابه — ليست هذه هى السعادة عندى . ولكنها قد تكون طريقا للسعاده . وإنما السعادة فى أن أسكن إلى رجل يغذى نفسى ويربى روحى .

لوقا — ومن فى القرية أكثر سعادة منك بهذا ؟ وما رأينا

---

(١) يعمل لخدمتها ببعض ثمارها

(الأب) الصالح أكثر حفاوة بأحد من حفاوته بك وحبه لك . حتى كنت فى مكان الحسد من بعض المقربين اليه .

مابه — وهذا مكان الألم . وموقع الخطب . .

لوقا — لست أفهم ماتقول يا مابه

مابه — ليس هـذا الرجل الصالح والأب العالم . بأول من رأيت فقد كنت بأورشليم تلميذا للأسقف بطرس ، فلما حضرته الوفاة أوصى بى إلى الرجل الصالح (ميشـان) بالموصل ، فألفيته خير خلف لخير سلف . ولـكنه والحزن يمزق قلبى لم تطل حياته معى ، وفارق الدنيـا مأسوفا عليه من جميع عارفى فضله وتقواه ، وكان قد أوصانى قبل وفاته باللحاق بالاب الصـالح « عيضا » فى بلدة نصيبين . فكان فى مكان صاحبه علما وتقوى . ولـكنى لم أمتع به إلا قليلا . حتى وافته منيته . فقرحت كبدى وفاته . وهدمنى خطبه . وكان قد أوصانى أن الحق ببلدتنا هذه وأكون فى خدمة هذا الرجل الثبت الزاهد . ويظهر أن النحس الذى يطاردنى فى كل مكان . والرزء الذى آلى على نفسـه أن يصاحبنى ليعكر على صفو سـعادتى فى كل بلدة — سينشب أظفاره بحياة هذا الرجل أيضا ، فهذا الفضاء الواسع أضيق فى عينى من سم الخياط . وهـذه الطبيعة الضاحكه . أقبح فى نظرى من جبهة القرد . وهذه السعاده التى تعاودنى حينا بعد حين . قد ذبلت وردتها وخفتت

أنفاسها . وبهت شعاعها ولا أدرى ماذا أصنع .

لوقا — وماذا يهمك من هذا كله مادامت لك هذه البقرات السمان والنعاج البضة . تتناسل وتلد ، ومادام ظل ثرائك يمتد . وفى نعمتك يتقدم

مابه — ما أكثر شغف سكان هذه البلاد بالمال والعتاد والثروة

لوقا — وماذا فى الدنيا أجمل مما ذكرت

مابه — باسما — فيها راحة الضمير لما يعتقد الانسان ، وسعادة الروح وهدوؤها بما يؤمن ، واطمئنانها إلى الجزاء العادل فى الآخره

لوقا — إنك رجل طيب . ومن يدرى الصالح من الطالح . والمقبول عند الرب والمطرود من رضوانه وجنته

مابه — المقبول بلا شك هو الذى يحاسب نفسه كل يوم عما فعل . ويتوخى بعمله رضاء الله وراحة الضمير ، والمطرود هو ذلك الذى يلبى نداء شيطانه . أو يضع حبله على غارب الهوى والمصادفات

* * *

خيم المساء بجناحى غراب أسحم . وراح مابه يقود بقراته ونعاجه إلى حظيرته . غارقا فى بحر من الحزن . هائما فى سحابة من الألم المبرح . لا يكاد يرى ماحوله . أو يحس مايجرى بين الناس كأنه صورة لفلاح يقود سوائمه فى معرض القرى البائسة

وما كاد يودعها حظائرها . حتى ولى مسرعا إلى دار الأب الصالح « أشعياء » فالفى تلاميذه ينشدون فيه الرجاء ، وأقرباءه ، بين راج وجازع . وآمل وهالع . فأمرهم المريض جميعا بالخروج ، واستبقى لديه الشاب المهاجر ، الطريد المؤمن ، مابه ، وابتدره مازحا

كيف حال بقراتك ونخيلاتك وكيف تعيش بين هؤلاء الذين يعبدون الذهب والفضة .

مابه — فدتك نفسى وماتملك يا أبتاه . . كيف صحتك أنت وحياتك الغالية

أشعياء — بخير والحمد لله . . أدن منى قليلا فدنا منه مابه . . فهمس فى أذنه وقال له وهو يبتسم

الرب يناديني وسألبي الليلة نداءه

فصعق مابه من وقع الخبر، ودار به المكان الذى هو فيه . ولكن ما وقع نظره عليه ، حتى الفى وجهه شارقا بالشحوب ، طافحا بالبشر ، فخالجه مزيج من الشك واليقين فى صحة هذا الذى يقول . . ولكنه لم يتعود من أستاذه الكذب . بل لعله مازح . ولم لايكون هذا الشحوب دنو الموت وهذا البشر هو بشر القرب من لقاء الله ! ؟ ولم أضيع الوقت فى تفسير الظواهر، وشرح المعلومات ، وتتبع القرائن ! ! فالأسأله قبل موته ان صح . . إلى من يكلنى ومن يوصى بى

كل هذه الخوالج كانت تدور فى رأس مابه ، وهو شاخص فى وجه أستاذه ، مضطرب على صحته وحياته ، حتى قطعتها عاطفة الحرص على دينه ومستقبله ، والرغبة فى مواصلة الدراسة ، ومجالسة الصالحين . فحدث أستاذه قائلا ، وإذا كان قد حضرك من أمر الله ماترى فبمن توصى بى والى من تكلنى

فهمس أشعياء فى أذنه بما همس ، فسر مابه لوصيته ، وآنس الصحة فى حديثه ورجا أن لايموت قريبا

استيقظ مابه فى الصباح مذعورا ، واستفاق متفلتا من رؤيا مزعجة فمسح على عينيه وتمطى ، ثم تثاءب ثم اعتمد رأسه بيده وراح يحاق بذاكرته فوق حجرة أستاذه ، ويتمثله منهكا من المرض ، ولكنه باش ، به شحوب من الالام ، ولكنه فرح لأمر مجهول قد يكون لقاء الله ، ثم عاد بها إلى تصوير هذه البلاد التى تحدث عنها بالأمس ، وفيها مبعث نبى كريم . وإذا كان هذا مبلغ الحب لهؤلاء جميعا لاخلاقهم وزهادتهم وعلمهم وليسوا برسل ولا أنبياء ، فكيف يكون ماعليه هذا الرسول المبعوث ، وبينما هو يسترسل ويجرى ويتردد بين الآمة الماضية وأمانيه العذبة المستقبلة — قطعت عليه أصوات النواقيس الحزينة حبل تفكيره ، فادرك أن القس قد فارق هذه الدار ، فخلقت عليه سحابة من الأسى وشاعت فى جسمه موجات الحزن ، فقام وصلى على روح الفقيد ماشاء أن يصلى .

— ٣ —

يردد الفضاء أصوات التكبير عاصفة ، ويحمل الاثير ألحان الترحيب شادية . ويفد الناس على اختلاف أعمارهم من كل صوب فى سرعة خاطفة . كأنها أجسام من المعادن جاذبها تيار المغنطيس . أو سهام تتراسل جميعها صوب هدف واحد . وأمام هذا كله وقف مشكم اليهودى على ربوة عالية يشرف على هذا التزاحم هازئا بأحلام أهل المدينة . ساخرا من حركة غدوهم ورواحهم فى خفة الطروب . ولسعة المشبوب ، ثم راح يقلب كفا على كف ويحدث نفسه وهو فى طريقه إلى حقله قائلا

ما لهؤلاء الاجلاف قد جن جنونهم . وطارت عقولهم . فنسى الشيخ وقاره . والطفل ملعبه وداره . والشاب دثاره . والكهل أبله وأبقاره . والعروس خدرها . والعذراء عزارها حتى اختلط الحابل بالنابل والحاسر بالدارع . ولا أدرى لهذا من سبب . فسمعه ابن عمه عن بعد فقال له

ما خطبك يابن العم

مشكم — لعن الله بنى قيلة (١) والله انهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة ، يزعمون أنه نبى

---

(١) أم الاوس والخزرج

سلام — نبي بعد نبي الله موسى الكليم ! ؟ وإذا كان هذا صحيحا فيهات أن يكون مثله

مشكم — هذا ما زعم هؤلاء المفاليك (١)

سلام — لقد أصابهم والله ما أصاب النصارى

مشكم — وأين هذا مما يقول أنصار عيسى فيه . . إنهم يقولون عنه أنه كان يشفى المرضى ويبرىء الأكمه والأبرص ، أما هذا فكثير ممن حوله من ذوى العاهات . وما سمعنا أنهم يطمعون فى شيء من هذا عنده

سلام — وهل تظن أنه هو الذى حدثنا عنه الحبر دانيال ؟

مشكم — لابد أن يكون هو وهذا أوانه ومكانه

وبيناهما كذلك فى نقاش وحوار . وإذا بمن يسقط عندهما من فوق نخلة . ففزعا لسقوطه المفاجىء . ثم تقدم اليهما فى هزة المحموم . ورعدة الممسوس لامن شدة الخوف . ولكن من وقع ما سمع وقال لمشكم :

— ما صفة هذا الرجل بربك ؟

فغضب سلام منه وحنق عليه لتركه عمله . وتوجه اليه بكلمة قاسية وقال له :

— مالك وهذا ؟ ! أقبل على عملك الذى منه تأكل ومن أجله ابتعتك !

---

(١) اجمع مفلوك وهو المجنون

مابه — مطئطأ رأسه ، ما أردت إلا أن أتثبت مما يقول ابن عمك

سلام — إذهب إلى عملك فى النخيل أيها الأحمق . فهذا مايصح أن تتثبت منه ، إذهب . إذهب قبل فوات الوقت . بل قبل أن أنزل بك نازلة تسكنك المقابر أو تجعلك طعاما للوحوش

مابه — بين الجزع والفرح — سأفعل . . سأفعل يا سيدى

ثم صعد مابه إلى نخلته التى فيها يعمل . بعد أن ترك أذنه عند المتحادثين ، ووعيه وانتباهه فى مجلسهما ، فكان كلما تحادثا صمت صوت القدوم فى يده ، وتظاهر بالانتقال إلى جهة أخرى ، فاسترعى ذلك انتباه اليهوديان فصاحا به مرات إلى العمل . إلى العمل . ومابه لايستطيع حمل أعصابه على أكثر من المحاولات التى يقوم بها ، متظاهرا بالعمل وهو فى ذلك يستذكر العلامات التى حدثه عنها أسقف (عمورية) ليتحقق وجودها فى هذا الذى تحدث عنه مشكم لابن عمه سلام ، ثم أخذ يحدث نفسه قائلا سأغدو اليه الليلة مستخفيا ، وسأعرض عليه شيئا أزعم أنه من الصدقة حتى أرى هل يأكل منه أو يمسك عنه ؛ فان امتنع عن الأكل منها وتحققت العلامة الأولى . جربت الثانية وهكذا حتى إذا كان هو النبى المبعوث بدين ابراهيم ، والذى حدثنى عنه الأسقف كان عليه أن يفك عقالى و يطلق أسرى .

* * *

خيمت ظلمة المساء على الكون . ولفته بلفائف الصمت والهدوء .

وراح مابه يتسلل فى جوفه تسلل الأفعى بين الحشائش والمروج . ويتلمس الطرق الخالية الى (قباء) حتى لا تقع عين أحد عليه . فيشى به إلى سيده وقد أودع حجره أرتالا من البلح ، يستودعها سره الذى قصد به معرفة النبى ، وجعل منها مسبر النبوة كما يحمل الطبيب معه سماعته لمعرفة قوة القلب وعدد دقاته ، وكلما انتهى من درب ودخل إلى آخر حمد الله على السلامة فيما مضى ، والستر فيما بقى ، ولم يكن يعرف نزل النبى وأصحابه الذى نزلوا فيه ، فتقيد بحبل الذاهبين اليه وسيل المتلهفين عليه ، وما أن أطل (مابه) برأسه على رجل يحيط به أصحابه إحاطة الأنجم بالقمر ، والسديم (١) بالشمس ، يطرقون إذا تكلم . ويتسابقون إلى أداء طلبته إذا طلب ، ويتنافسون فى إرضائه ومحبته ، ويتبركون بوضوئه ، ويسالونه فى اغضائة وحياء ، . . . كل هذا (ومابه) يجاهد نفسه أن يهوى على يده فيقبلها ، ويكافح نفسه أن تقع على قدمه فيلثمها ، حتى وصل إلى حالة من الفرح والسرور لم يستطع معها إلا أن يخرج عن صمته فابتدر الرسول قائلا :

السلام عليك يا رسول الله

محمد — وعليك سلام الله ياعبد الله

مابه — إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوحاجة ، وهذا شىء قد كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم ..

---

(١) هو النور الابيض الذى يحيط بالشمس صباحا .

ثم قربه اليه ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

— كلوا مامن الله عليكم

قدم مابه مامعه ووقف يرتقب ثمرة تجاربه ، كذلك الصياد الذى يلقى بشصه فى الماء ثم ينظر ما يعلق به ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الأكل منها . طار قلبه فى صدره وشاعت فى جسمه موجات الفرح والسرور ، ثم عاد إلى دارسيده . وكأنه ملك ثلث الدنيا ، وأمسى يصلى ويدعو الله أن يحقق بقية الآمال

وفى مثل هذه الساعة التى ذهب فيها إلى رسول الله ، كان فى طريقه اليه للمرة الثانية ساكنا كالشبح ، هائما كالطيف . وقد خلق من ردائه مخلاة لكمية من التمر الجاف ، وجعل منها مخبرا للعلامة الثانية لنبوة محمد . وما ان أدرك محلته وأصحابه ، حتى ألفاهم يصلون فى مثل رهبة الليل وحفيف الملائكة . . .

فزاد ذلك من وقع الاسلام فى نفسه ، ومحبته له ، فجلس خلفهم يضم ركبتيه إلى صدره ، كأنما يربط على فؤاده أن يفر من شدة الجزل . حتى اذا أتموا صلاتهم ، بسط رداءه بين يدى رسول الله وقال :

— انى قد رأيتك يارسول الله لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية قد أكرمتك بها فهل لك فى قبولها

فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل منها ، وأمر أصحابه بالأكل معه

ثم عاد مابه إلى بيت سيده يعدو من الفرح . ويثب من السرور . ثم آوى الى فراشه تطوف برأسه أجمل الصور وأحلى الأمانى .

ثم انقطع عن رسول الله أياما ، فكان كل يوم يمر به دون أن يرى رسول الله ، كأنما ينتزع فلذة من كبده . أو وجبة من دمه . حتى اذا غاب سيده فى شأن له . ذهب ليطالع وجه محمد عليه السلام . فألفاه فى جنازة أحد أصحابه فابتدره قائلا :

— السلام عليك يا رسول الله

— وعليك سلام الله ياعبد الله

ثم جلس مابه قليلا وأطرق صامتا ، ثم قام فظنه الناس منصرفا . ولكنه استدبر رسول الله ، حتى إذا اشتغل بالحديث مع أحد الصحابة . أخذ يمد أنامله صوب رسول الله فى حذر ، ثم أخذ يطل بين كتفيه فى رهبة . فأحس رسول برغبته ، وأدرك سرحبوه وبغيته ، فأرخى لردائه فانحسر عن ظهره ، فبدى خاتم النبوة بين كتفيه فطار صواب مابه من الفرح ، واكب عليه يقطعه لثما ويستوعبه تقبيلا . ويمرغ وجهه عليه ، ويمسح صفحته بخديه ، ويغسله بعبراته ، ويقذفه بزفراته ، ورسول الله ضاحك السن ، باسم المحيا مما يفعل ، ثم قال له

تحول مابه

فقام مابه وأدار وجهه ليمسح دمعه ، ثم جلس بين يدى الرسول وقال :

— بأبى أنت وأمى يارسول الله .

رسول الله — مابك ياما به ؟

ثم التفت الى أصحابه وقال اسمعوا أخاكم

مابه — كنت تلميذا لأسقف (عمورية) وكان منى فى مكان الثقة وموضع المحبة . وحينما حضره من أمر الله ما حضر استوصيته فأوصانى بالهجرة الى بلاد العرب . وقال لى انه قد أطل زماننا نبى مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ويهاجر الى أرض بين حرتين ، بينهما نخل به علامات لاتخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة فان استطعت أن تلحق به فافعل ، ثم مات وغيب ، ثم مكثت بعمورية ماشاء الله أن أمكث ، ثم مر بى نفر من كلب تجار ، فقلت لهم احملونى معكم ولكم بقراتى وغنيماتى فقالوا لك منا ذلك ، أفأعطيتهم إياها وحملونى معهم . حتى إذا بلغوا بى وادى القرى . تهامسوا ثم تضاحكوا ثم قدمونى سلعة الى رجل يهودى . فابتاعنى له عبدا . فكنت عنده ثم أخذت أقلب وجوه النخل وأبحث عن الأرض السوداء تكتنف بلدتنا ، ورجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى ، ولكنه لم يقر فى روعى شىء تطمئن له نفسى . حتى جاء لسيدى ابن عم له ، فابتاعنى منه وحملنى الى المدينة فوالله مارأيتها حتى عرفتها بصفة صاحبى الذى وصف ، فأقمت بها . حتى سمعت البشير بمقدمك . فرحت أغشى مجلسك . حتى عرفت أنك

البشير النذير المبعوث بدين ابراهيم ، عرفتك وقد امسكت عن الصدقة . وأكلت الهدية . وشخص بين كتفيك خاتم النبوة يشهد أنك الرسول الأمين .

* * *

استقر رسول الله فى المدينة ورسخت فيها أقدام الدعوة الاسلامية . وتأصلت جذورها فى الأرض وطالت أغصانها فى السماء وجهز رسول الله لغزوة (بدر) ثم تجيش (لأحد) وعاد منها (ومابه) مشغول بمهنة سيده مكدود بأعمال الرق ، مرهق بمطامع اليهود واقتصادياتهم ، حتى جاء يوما الى مجلس الرسول وأصحابه مكدودا متعبا مضمحلا مرهقا . فقال له رسول الله :

— كاتب (١) يا سلمان

سلمان — سأفعل يارسول الله

ثم غاب سلمان وعاد ، وأخبر النبى قائلا :

— لقد كاتبت يا رسول الله على ثلثمائة نخلة أحييها بالفقير (٢) وأربعين أوقية من ذهب

رسول الله — أعينوا أخاكم فيما كاتب عليه صاحبه حتى تعتقوا

---

(١) المكاتبة هى العتق بعمل أو جعل من العبد لسيده

(٢) الجمع فقر بضمتين وهى الحفرة يزرع فيها سلالة النخل الصغير

رقبته من الأسر .. وأنت ياسلمان اذهب ففقر (١) لها جميعا حتى إذا فرغت فأتنى أكن أنا واضعها بيدى .

فذهب سلمان الى حقل اليهودى يقوم بحفر الآبار لزراعة الفسائل(٢) وتفرق الصحابة الى مزارعهم مثنى وفرادى ، ليحملوا الى أخيهم سهامهم فيما كاتب عليه ، ولم يلبث سلمان فى حقله طويلا حتى استقبل هذا يحمل ثلاثين فسيله ، ووافاه ذاك بعشرين .. وأقبل عليه ثالث بعشر ، ورابع بأكثر أو أقل ، حتى تكاملت عدتها ثلثمائة وان لم تكن سوى السطر الأول من صك حريته ، فذهب الى رسول الله يستقدمه للغراس . فوافاه صلى الله عليه وسلم ، وأخذ سلمان يناوله واحدة بعد واحدة وهو يغرس بيده ويقول ، باسم الله وعلى بركته . حتى انتهى منها جميعا . وبات سلمان ليلته يدعو الله بالنمو والبركة . واستيقظ مبكرا ليقرأ على نضرتها تباشير النجاح ، أو يشهد على صفرتها أمارات الخيبة .

ثم وقف دونها ينظر إليها بعين الرجاء تارة ، كما ينظر الوالد الى أطفاله الصغار يدرجون فى حجر منزله . وبعين الخوف تارة أخرى كلما ذكر أن كل واحدة منها تمثل شهرا فى حياة حريته وتكون لبنة فى بناء سعادته . ثم تعاوده الطمأنينة كلما أحس أن ذيول الامس

---

(١) احفر (٢) جمع فسيلة وهى السلالة المعروفة (بالشتل)

أخذت تنسحب . وأن حياة جديدة تدب فى جسم الجميع ، وتسرى حاملة على التهافت ، مطاردة للاعياء والموات .

كرت الليالى ومرت الأيام . وسلمان يتفقد فسائله . ويزداد بمرور الأيام ثقة فى حياتها ونموها . حتى استغلظت يوما على سوقها . وتحدثت نضارتها بين عروقها ، فأدرك أنه وصل الى نصف الطريق . وكتب له نصف الحياة الهانئة .

ثم ترك سلمان مزرعته فى حراسة بعض الأصدقاء من جيرانه ، وذهب الى رسول الله يبشره بنجاح فسائله

فابتدر رسول الله قائلا

— السلام عليك يارسول الله

محمد — وعليك السلام يا عبد الله

سلمان — لقد هزنى الشوق إليك ، وبرح بى البعد عنك . ودفعت بى أنباء الفسائل نحوك .

محمد — وملخطبها الآن ؟

سلمان — والذى نفس محمد بيده ما ماتت منها واحدة . ولم يبق بعد ذلك إلا الذهب ندفعه ، فأخرج رسول الله من ثنايا ثيابه مثل البيضة من الذهب وقال

خذ هذه فأدها مما عليك

سلمان — وأين تقع هذه يا رسول الله مما على

محمد — خذها فان الله سيؤدى عنك .

أخذها سلمان وراح ينظر إليها مغتبطا ويقلبها فى يده جذلان فرحا . فقطع عليه تأملاته اعرابى كان يرى فيه صديقا له ، فقال : ماذا معك ؟

سلمان — معى قدوم العبودية . ومفتاح الحرية . وتعويذة الحياة الرفيعة ، وباب السعادة المنشودة

الأعرابى — وإلى أين ذاهب يا هذا ؟

سلمان — الى اليهودى أدفع بها اليه ، بقية ما كاتبت عليه

الأعرابى — يالكم معشر المسلمين من قلوب سليمة ! كيف تصنع لليهودى بالأمس كل هـذه الثروة الطائلة تتألف من ثلثمائة نخلة أو تزيد ، زاهية نضرة قوية ، ثم تأتى اليوم لتعطيه هذا الذهب ! ؟ لو كنتم فى الناس قلة ، أو كنتم بين الناس ضعفاء ، لما كان هناك مندوحة الى ذلك . ولـكنكم الآن فى منعة وقوة . فـكيف تنزل على ارادة هذا اليهودى الجشع !

سلمان — لقد أخذنا عن رسول الله أن يكون لأهل الـكتاب مالنا ، وعليهم ماعلينا ، ماداموا يؤدون ماعليهم من الجزية

الأعرابى — هؤلاء اليهود قد حلوا ببلادنا ضيوفا فقراء معدمين ، فأضحوا اليوم خزنة ثروتها . وأصحاب القروض فيها . حتى ضاقت الحياة بالعرب . وشربوا كأس الفقر المريرة . فأنتم تضيفون بمثل عملكم ثروة الى ثروتهم . وجاها إلى جاههم جديدا

سلمان — هؤلاء قد اكتسبوا ما اكتسبوا بكدهم . واختزنوا ما اختزنوا بجهدهم ، فكيف يغصبون مثل هذا الحق، سيما وقد أصبحوا أهل ذمة والرسول يقول من آذى ذميا فقد آذانى . . والاسلام لايعرف الغدر أو الخيانة . . .

ثم ذهب سلمان الى اليهودى . وأخذ يزن له من الذهب أوقية بعد أخرى ، حتى وفى الأربعين . فاعتقه اليهودى . وعاد سلمان بشباب جديد هو شباب الايمان ، وثوب جديد هو ثوب الحرية . ثم شهد بعد ذلك مع النبي جميع غزواته بطلا مقداما . وعلما خفاقا . وسيفا من سيوف الله لم ينثن ولم يفل ولم يغمد . حتى أغمده التراب .

اللّٰهُ أكبَرُ

ائتمر الرسول وأصحابه لابتكار وسيلة للدعوة الى الصلاة ، فاقترح رفع راية أو اشعال نار أو نداء مناد أو نفخا فى بوق أو دق ناقوس ، حتى هداهم الله الى الاذان ثم الى القبلة التى رضيها الرسول وفى هذا الفصل ما يصور كل ذلك

ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا
وقال انني من المسلمين (١) « قرآن كريم »

بلال بن رباح فوق أعلى منزل بالمدينة يقلب وجهه — سحرا — فى السماء ، كأنه يعد نجومها ، أو يستعرض معالمها ، أو يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . تلمع أسنانه ناصعة فى الظلام ، وتشع عيناه قوية فى ضوء الكواكب . ولم يلبث فى تأملاته إلا قليلا حتى استطال عنقه فى الفضاء . وامتلأت أوداجه بالهواء ، ثم أطلقها قوية اقشعرت لجرسها الأبدان . واهتزت لوقعها القلوب ، وعنت لرهبتها الجباه ، ثم سرت لدعوتها نشوة فى الدماء ، وشاع لندائها اشعاع فى الروح . ثم جاذبت الأبدان فجذبتها . وغالبتها فغلبتها ، ثم سارت بها إلى حيث تلبى نداء الكريم فى بيت الكرم ، حول مائدة رحمته ورضوانه سواسية كأسنان المشط ، لافضل لأحد على أحد إلا بقدر ما يقدم من العمل الصالح . والعمل الصالح يرفعه

بل هى صاعقة هوت فى حى اليهود ، فزلزت بنيانهم وأطارت لبهم ، وبركان ثار على غير انتظار فخلع قلوبهم ، وأذاب اصطبارهم . فراحوا يصغون إلى بقية عبارته فى يأس وقنوط

تلك هى . الله أكبر . الله أكبر

أول نداء لله يشق طريقه الى سمع الزمن ، ويأخذ مكانه فى وعى

---

(١) قيل نزلت هذه الآية الكريمة فى المؤذنين

الخلود ، شعارا لعقيدة الأسلام ، ونشيدا للمسلمين على ممر الأيام .

* * *

إكتمل عقد القوم فى بيت حيي بن أخطب سيد بنى النضير ، وكان يشغلهم جميعا تفكير عميق ، وان اختلفت مظاهر هذا التفكير بين أطراقة إلى الأرض ، أوعبث بمؤخر اللحى أو تخطيط بعود ، أو مناقشة حادة خافته ، أونظرة فى الفضاء سابحة ، حتى قطع عليهم كل هذا دخول أبى ياسر بن أخطب وبادأهم بقوله :

— علام اتفقتم ؟

أصوات — لم نتفق على شيء بعد ، حتى تشاركنا الرأى

أبو ياسر — تعلمون أن بيننا وبين محمد عهدا ، وقد قبلناه طواعية أوكرها ، وأدخل على نفوسنا بعض الطمأنينه صلاته نحو المقدس . وكنا ننتظر أن يتم علينا طمأنينتنا فيتخذ من الشبور (١) أداة للدعوة إلى صلاته ولكنه فاجئنا — سحرا — بنداء تقشعر له الأبدان ، ويدعو إلى الرهبة ، وقد والله حرمنى وقعه فى نفسى حلاوة النوم أياما طوالا بل انى لأعتقد أن صوت بلال أضحى أمضى الأسلحة فى دعوة محمد .

سلسلة بن برهام — لقد كنت أعلم أنه يأتمر مع قومه منذ أيام ، على اختيار أداة للدعوة الى صلاته ، بدل مرور العبد الأسود (٢) بين الأحياء

---

(١) بفتح الشين وتشديد الباء ويسمى القبع بضم القاف واسكان الباء ، وهو بوق يدعى به للصلاة عند اليهود (٢) يقصد بلالا

يضرب الأرض بعصاه ويقول « الصلاة جامعة » فعرض عليه أن ترفع فى مواقيت الصلاة راية ، حتى اذا رآها الناس آذن بعضهم بعضا ، فلم يرض ذلك ، ثم عرض عليه ان يشعل نارا حتى اذا رآها الناس آذنوا فقال هـذه للمجوس ، فعرض عليهم أمر الشبور حتى إذا سمع الناس صوته آذنوا ، فقال هو من أمر يهود

سلسلة . — يواصل حديثـه — ثم عرض عليه الناقوس (١) فسكت ، فوقع فى نفس أصحابه أن فى سكوته رضاء . فراحوا يبحثون عن خشبة كبيرة ، وتسامع الناس ذلك ، ولم يلبثوا طويلا حتى فوجئوا بما سمعنا من هـذا العبد بلال ، حقيقة إن أذانه على جذم حائط قد أراح الأطفال من رؤية وجهه ، يتجول فى الأحياء يدعو للصلاة ، وأن كان جمال صوته أضحى خطرا على مشاعر الـكبار ، ولقد علمت إن هذا النداء صورة رؤيا رآها حـدث من أحداث الأنصار يدعى عبد الله ابن زيد

أصوات — أضغاث أحلام

أصوات أخرى — رؤيا كاذبة

سلسلة — من يستطيع القول بذلك ، بعد أن ادعى عمر أنه رأى مثلها ولف لفه عبد الله بن أبى بكر ، وحكاها أربعة عشر من الأنصار كلهم يزعمون ذلك ، لا تدرى أهذا صحيح أم هوس الاسـلام قد لاث عقولهم

---

(١) وكان اذ ذاك لا يعد وخشبة كبيرة يضرب عليها بخشبة صغيرة

سلام بن مشكم — قل من يستطيع ان يقول هذا لمحمد وأصحابه بعد ما بلغوا من قوة الشأن ، ثم ساد المجلس صمت طويل . لم يقطعه عليهم إلا دخول كعب بن الأشرف محتقن الوجه ، مبهور الأنفاس ثم بادرهم قائلا

هل علمتم ما حدث ؟ .

أصوات — علمنا نداء بلال بن رباح بن حمامة

كعب — ليس هذا فحسب ، ولكن محمدا نوى اليوم بأصحابه لصلاة الظهر (١) جهة بيت المقدس ، فصلى بهم ركعتين ، ثم استدار جهة الكعبة وصلى الركعتين الأخيرتين ، فحدث أن صلى النساء فى مكان الرجال والرجال فى مكان النساء ، ثم أخبر أصحابه بعد الصلاة أنه بهذا قد أمر (٢) ففرح بعض أصحابه بذلك لأن قريشا كانت تعيرهم باستدبار الكعبة وهى قبلة ابراهيم ، فما ترون فى ذلك ، بعد أن جانب قبلتنا وكان فى ذلك فخر كبير لنا

مالك بن الصيف — ليست فخرا لنا وحدنا ، بل فخر للنصارى معنا

كعب — حسن فلنؤلبهم عليه بدورهم ، ليشاركونا عبء الموقف ويساهموا معنا فى مناهضته

أبو ياسر — وأين هم نصارى يثرب وما حولها ، ولا يوجد بين ظهرانينا منهم إلا قليل

---

(١) كان ذلك فى المسجد المعروف الى الآن بمسجد القبلتين بالمدينة (٢) وفى هذا نزلت آية « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام »

كعب — فانرسل برسلنا الى نصارى نجران والشام وغيرهم لنشعل الفتنة حوله من كل ناحية

سلام — وماقوام هذه الفتنة ولانملك مثل مايملك من قوة الملك وعزة السلطان

كعب — ان الكثيرين من أصحابه ما يزالون على الفترة الأولى لم تستسغ عقولهم تعاليمه بعد ، وان اثارة الشبه فى وجوههم ووجهه يترك أثره الكبير فى نفوسهم وعقائدهم

حيي بن أخطب — لقد قمنا بهذا الدور فخسرنا فى المعركة أفضل أحبارنا كالحصين الذى سمى نفسه الآن عبد الله بن سلام ثم عبد الله ابن صوريا وميمون بن يامين ومخيريق الثرى المعروف

أبو ياسر — سوف لانيأس ، وما أدرانا ! لعل محمدا قد خسر بعض أصحابه بما أثرناه من شبهات ، وعلى أى حال فسنجرب كل أسلحتنا التى نملك ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين

* * *

رسول الله فى المسجد حيي مهيب وأصحابه حوله لايحدثونه مغضين إلا اذا تحدث ، ولا يسألونه متأدبين إلا اذا استسأل ، وأمامهم زعماء اليهود وأحبارهم ، بين جامع لاطراف ثيابه ، وماسح لمؤخر لحيته ، يرمقونه بنظرات الحقد تعشيها ابتسامات مصنوعة ، وتطلف فى العبارة

خادع ، ثم انطلق فجأة صوت أبى ياسر بن حيي يقول :

يامحمد : ماولاك عن قبلتك التى كنت عليها (١) وأنت تزعم انك على ملة ابراهيم ودينه (٢) فارجع الى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك

عبد الله بن زيد — قد كنتم بالأمس القريب تقولون (يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا واننا على هدى وإلا لما صلى الى قبلتنا) فكيف يتفق ما قلتموه بالأمس وماتقولونه اليوم ، على ان قبلة ابراهيم فى الكعبة التى بناها ودعا الناس الى حجها ، وقد صلى رسول الله أخيرا اليها بأمر من ربه حمله اليه جبريل

سلام — آه من جبريل (٣) لما يزل يتابعنا ويطاردنا ، كأنه موكل بضايقتنا دون العالمين

أبو ياسر — دعونا من ابراهيم وقبلته . أليس بيت المقدس هو قبلة موسى ويعقوب ، بل ما من نبي بعث منذ هبط آدم ، إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس

بلال — وقد صلى رسول الله الى بيت المقدس ستة عشر شهراً ليشارك هؤلاء الانبياء قبلتهم ثم ولى وجهه شطر الكعبة قبلة ابراهيم

---

(١) هذا بناء على مغالطتهم فى ان بيت المقدس هو قبلة ابراهيم عليه السلام

(٢) وفى هذا نزلت آية سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . .

(٣) يعتقد اليهود ان جبريل هو عدوهم الاول وفيهم نزلت آية (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين

واسماعيل ليكون قد صلى الى قبلتى الانبياء جميعا ، وهذا مصداق ما فى التوراة من وصفه بصاحب القبلتين . . أليس هذا فى كتابكم يهديكم الله

سلام — يتمتم بكلمات غير مسموعة ، أغلب الظن انها تحمل السخرية ببلال لسواده

أبو ياسر بن أخطب — يا محمد . أخبرنا عن أربع نسألك عنهن فان فعلت اتبعناك وصدقناك وآمنا بك

رسول الله — عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أخبرتكم بذلك لتصدقننى

اصوات — نعم

رسول الله — اسألوا عما بدالكم

أبو ياسر بن أخطب — كيف يشبه الولد أمه

رسول الله — أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل ان نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فأيتهما غلبت صاحبتها فان لها الشبه

أصوات — اللهم نعم

نابه بن صوريا — اخبرنا كيف نومك

رسول الله — أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون أننا معاشر الانبياء تنام اعيننا ولا تنام قلوبنا

سلام — أخبرنا عما حرم اسرائيل على نفسه

رسول الله — انشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون ان كان أحب الطعام والشراب اليه البان الأبل ولحومها ، وانه اشتكى شكوى فعافاه الله ، فحرم على نفسه لحوم الابل والبانها

اصوات — نعم

حيي بن اخطب — أخبرنا عن الروح

رسول الله — انشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون جبريل الذى يأتينى

اصوات — نعم

حيي — ولكنه يا محمد لنا عدو وهو ملك يأتى بالشدة ويسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك ، فسكت صلى الله عليه وسلم ثم أغمض بصره وتفصد عرقه ، واغلب الظن أنه مشتغل بالوحى ، ثم عاد كحالته وقال « من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك بأذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » ثم قال أنى انشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى ، وانشدكم بالذى ايبس البحر لآبائكم حتى انجاهم من فرعون وعمله ، إلا أخبرتمونى ، هل تجدون فيما أنزل الله عليكم ان تؤمنوا بمحمد . فان كنتم لاتجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم قد تبين

الرشد من الغى ، فأدعوكم الى الله والى نبيه

أخطب — حتى تجيب على هذا أيضا يامحمد ، . . اذا كان الله قد خلق هذا الخلق فمن الذى خلق الله

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظهرت علامات الغضب فى وجهه . ثم غابت عيناه تحت محاجره وتصبب عرقه ، ثم زفر واستفاق من غشيته وقال

قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد

حي — صف لنا يامحمد كيف خلقه وكيف ذراعه وكيف عضده

وهنا غضب رسول الله غضبة امتقع لها لونه حتى خشى اليهود عاقبة ذلك ، فنظر بعضهم الى بعض نظرة الاستعانه بحيلة للخروج من هذا الضيق . ولم يكن لهم من مخرج إلا حلم رسول الله الذى أخذته غيبوبته المعتاده ثم عاد اليهم وقال

وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

* * *

وسمع المصلون خلف رسول الله فى المسجد وقع حوافر خيل تصك وجه الأرض ، وتعلك خطامها فى ازيز ، وترسل صهيلها يدوى فى الفضاء رخيا متواصلا ، والصبيان خلفهم فى زحام كثيف وحشد سميك يستطلعون أمر هؤلاء الغرباء عن يثرب ماخطبهم ، وقد دخلوا لايلوون

على شيء ميممين مسجد النبي ، وقد لفحت الشمس وجوههم وكستهم سنابك الخيل بماتثيره أثناء الطريق سربالا من التراب

وما إن أتم رسول الله صلاة العصر، حتى تقدم اليه أبو عبيدة وقال بالباب وفد من نصارى نجران يستأذن فى اللقاء

رسول الله — مامعناه — دعوهم يدخلون

وجلس القوم قبالة الرسول . وراح رهبانهم وعلماؤهم يسرحون النظر فى وجهه صلى الله عليه وسلم ويمعنون . ويقابلون مايعلنون من أوصافه عليه ، ثم ابتدره أبو حارثة بن علقمة قائلا

ماذا يقول دينكم فى عيسى يامحمد

رسول الله — رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه دون ان يكون له والد من البشر

أبو حارثة — بل هو الله الذى أبرأ الاكمه والأبرص وأحيا الموتى

العاقب — بل هو ولده الذى نفخ فيه من روحه

ارطأه — أوقل هو ثالث ثلاثة الآب والابن والروح القدس والكل إله واحد ، فسكت صلى الله عليه وسلم هنيهة ثم أخذ يتلو عليهم من أول سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية فكانت تنزيها لله عما قالوه ، واثباتا لتوحيده وبقائه وقيوميته ، وأنه رب كل هؤلاء الرسل ومنزل كل هذه الكتب التى جاءوا بها من التوراة والانجيل والقرآن ثم ذكر قصة أم مريم ، وما كان يأتيها من رزق فى المحراب وماحباها

الله به من الفضل والقبول الحسن ، ثم اصطفاء الله لها وتطهيره اياها ، ثم تبشير الله لها بعيسى ووصفه بأنه (وجيها فى الدنيا والآخرة ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين) وأنه قال انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بأذنى ، وأبرىء الاكمه والأبرص واحيي الموتى بأذنى ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) الى ان تلا على مدعى بنوته قوله تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) الى ان قال (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ثم تلا (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

وماسمع النصارى ذلك القصص العجيب والتهديد بالمباهلة ، حتى قال الأيهم دعنا يا رسول الله ننظر أمرنا ثم نأتيك

ثم ضم شملهم مجلس واحد ساده صمت ملجم لم يشق عليهم سكونه إلا صوت العاقب يقول

أى عبد المسيح . . ماذا ترى

عبد المسيح — والله يامعشر النصارى لقد عرفتم ان محمداً مرسل ولقد جاءكم بالقول الفصل فى خبر صاحبكم، ولقد علمتم من كتب الاقدمين أنه مالاعن قوم نبيا قط، وبقى كبيرهم أونبت صغيرهم، فان كنتم قد ابديتم الالفة لدينكم، والاقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم

خويلد — ما الذى تقول؟ لقد كنت معنا بخير، فما الذى جد

اوس — لقد سحره محمد كما سحر من آمنوا به وصدقوه

عبد المسيح — إذن فلاعنوه ان كنتم تأنفون كلامى وتأبون نصحى

الايهم — لاملاعنة ولامباهلة فسنوادعه حتى نغادره

الحرث — ياالخيبة المسعى! ظننا اننا سنستطيع ان نضرب اليهودية به ونجلى أصحابها عن يثرب حتى لايهدأ لهم عيش فى مقام. فاذا به يريد ان يجرفنا مع اليهود فى مجرى واحد

اوس — وماذا فعل اليهود بدسائسهم ومكرهم معه

الحرث — أغلب الظن أنهم لاينجحون مع مثل هذا الرجل الذى كاد يسحرنا جميعا، لولا بقية من إيماننا بعقيدتنا

أبو حارثة بن علقمة — خففوا من غلوائكم على هذا الرجل، فوالله انه ليس بساحر ولا كذاب، وأنه ماقال إلا حقا

ألا ترون ان دينه يؤمن برسالة موسى، كما يؤمن ببعثة عيسى كما

يدعو إلى الاسلام ، والرسالة التى تدعو الى كل ذلك وتؤمن به رسالة أوسع دائرة وأعم نفعا . ألم تقرأوا فى الكتاب المقدس بشارة اليسوع فى ظهور (البارقليطس (١)) من بعده . . ؟

الايهم — محتدا — ولماذا لا تؤمن به أنت فطأطأ أبو حارثة رأسه طويلا ثم قال :

انه لا يمنعنى من الايمان به إلا هؤلاء القوم (٢) الذين شرفونا ومولونا وأكرمونا فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى

* * *

وعلى بعد فراسخ من يثرب فى طريق الشام وفى ظل شجيرات أحنت افنانها على الطريق موئلا ورحمة ، جلس ركب النصارى ومعهم أبو عبيدة بن الجراح الذى اختاره رسول الله حكما بينهم . يستروحون فىء الظل ويستجمون من وعثاء السفر ، فهبت على الجميع نسمات شذية اهتزت لها الأغصان ومادت . وصفقت لها الأوراق وتاهت . وسقت أضيافها راحا وراحة . وسرت بين أعطافهم نعيما وهناءة . وتمشت بين رئتيهم تلطف الظمأ وتشفى الضنا . وتغرى بالاغفاء . لولا صوت شاد قد انبعث فجأة من خلال البستان يردد قول الشاعر :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال

---

(١) كلمة عبرية معناها احمد .

(٢) يقصد قيصر الروم وحكومته

عالم السر والبيان لدينا ليس ما قال ربنا بضلال
وله هودت يهود ودانت كل دين اذا ذكرت عضال
وله شمس النصارى وقاموا كل عيد لربهم واحتفال
وله الراهب الحبيس تراه رهن بؤس وكان ناعم بال

فبتسم أبو عبيدة وقال اتدرون لمن هذا الشعر

أبو حارثه بن علقمة — لا وأبيك

أبو عبيدة — هذا لقيس بن أبى أنس الراهب المعروف

كوز بن علقمه — معتدلا مبهوتا — وهل أسلم ذلك الرجل الذى رددت الآفاق انباء ورعه وتقواه ؟

أبو عبيده — وحسن اسلامه وهذا شعره ينبيك عنه

فأطرق كوز بن علقمه طويلا وراح يعبث بعود كان فى يده . . فمال العاقب على عبدالمسيح واسر فى اذنه كلاما أغلب الظن أنه تصوير لما فهم من شعور كوز بن علقمه نحو الاسلام

وماطلعت شمس اليوم التالى لهذا الحديث ، حتى كان العاقب على باب حارثه بن علقمه يخبره باختفاء أخيه كوز بن علقمه ويقدم له صحفة كتب عليها قبل رحيله (آمنت بمحمد وكفرت بنصرانية الروم) .

طلائع الحق

كما أخرجت قريش رسول الله وأصحابه من ديارهم وأموالهم ، أراد أن يستدرجها اليه ، فارسل من يتحسس أخبار قوافلهم ذاهبة من الطائف الى الشام ليستولى عليها ، فتفارق قريش مكة لتخليصها فيقتص منها بما صنعت ولكن الله أراد بما سبق به قضاؤه وكان ما يصوره هذا الفصل .

« إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم محمد رسول الله »

وجلس صلى الله عليه وسلم قبالة المحراب بعد صلاة العشاء يتلو حصة من القرآن فى صوت خفيت عميق . ثم أسند ذقنه الى راحته . ولعله كان يستعرض ما وصل إليه الحال بعد عام أو أكثر فى يثرب من بناء المسجد والمنازل وحضور الفواطم ، وسلوك الأصحاب مسالك الرزق المختلفة ، واصدار التشريع تنظيما للعلاقات وتأمينا للعقائد والحريات . وتحصينا ليثرب مما عساه يحدث من الغارات . ثم اطفاء نار الفتن يشعلها اليهود فى مختلف المناسبات . وترويع قريش فى تجارتها تلاحقها السرايا فى ذهابها إلى الشام وعودتها منها . . ولكن السهم الذى قصد به إلى افساح قريش طريق الدعوة إلى الاسلام بمكة دون حرب أوقتال — لم يصب هدفه بعد ، صلفا من قريش واستهانة بالقوة التى رأوها تلاحق غيرهم ، ظنا منهم أن ذلك كل مايملكه الاسلام من عدة وعدد

نعم قد استطاعت هذه السرايا ان تخضد شوكة اليهود وكانوا قد بدأوا يتنمرون للمسلمين ويتربصون بهم الدوائر ، واستطاع المسلمون كذلك أن يحالفوا بنى مدلج فسيطروا بذلك على قسم كبير من طريق مكة — الشام لا تجد فيه قريش من يأويها أو يحميها

ولكن ذلك ليس شيئا مذكورا بجوار مايصبو اليه المسلمون من إنقاذ أهليهم وأقاربهم واصهارهم وعشيرتهم من حمأة الوثنية التى تردوا فيها عنتا

وكبرياء. وتطهير بيت الله من الأوثان تعبد من دونه. وترتكب حولها الموبقات والحماقات باسم العبادة والقربى إلى الآلهة، ورجوعهم إلى مكة حجر الكعبة العزيزة ومثوى الآباء والجدود، ومدرج الصبا واليفاع، ومطاف الذكريات الكريمة...

أجل.. لعل هذا أو بعضه ما كان يدور بخلد رسول الله إذ ذاك أو ما كان يحدث به نفسه.. ولعله لم يقطع عليه حبل تفكيره إلا وقوف زيد بن حارثه خلفه ينتظر السماح له بالحديث، فأومأ له النبي، فمال على أذنه الشريفة وأسر له بكلمات استدعى رسول الله على إثرها عثمان بن عفان فوافا مسرعا، ثم تنحى به إلى زاوية فى المسجد.. وعلى ضوء أحد المصابيح المتهافتة المدلاة من جيد أحد الاعمدة، أخرج عثمان قطعة من قماش الصوف، ثم كتب عليها ما أملاه الرسول عليه، ثم استدعى بعد ذلك عبد الله بن جحش ودس فى يده هذا الخطاب ثم أسر له بكلمات وشد على يده كمن يشد على يد مسافر

* * *

وأمام عين ثرة من الماء تتلوى بسلاسله أخاديد(١) الرمال الصفراء، وتوشحت حافتاها بالنباتات الخضراء، وانبعثت من جريانها وسوسة كوسوسة الحلى فى يد الحسناء.

---

(١) جمع اخدود وهو الشق فى الارض

وفى ظل نخيلات تشابكت أصولها ، وتنافرت غصونها ، وتناعست عراجينها . وتمنطقت بمسدها (١) وعلى مسيرة يومين من يثرب نادى عبد الله بن جحش قائد السرية فى الركب : أيها القوم لقد انتهى إلى رسول الله ان عيرا لقريش ستمر فى طريقها إلى مكة فأشخصنا اليها . وأنه قد حملنى خطابا وأمرنى أن لا أنظر فيه إلا بعد مسيرة يومين . فأستطيع الآن أن أقرأه عليكم بعد ان بلغنا ما أوصانى به ، وقد يكون فيه مالا يرضى بعضكم ، فاذا كان كذلك فلينصرف عنا من يريد ، وليتابعنا من يريد ، فقد أمرنى أن لا أستكره أحدا على اتباعى

ثم بسط الكتاب وتلا كلام الرسول

(إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة (٢) فترصد بها قريشا وتعلم (٣) لنا من أخبارهم) فتعالت الأصوات . . الله أكبر . . الله أكبر

واقد بن عبد الله — فلنستحث المطايا حتى نطوى الأرض إلى نخلة

عبد الله — صبرا يارفيق حتى نأخذ حاجتنا من الراحة ، ووجبتنا من الماء ، ثم ساروا يستحثون الخطا يحدوهم الأمل فى النصر ، ويسرى عنهم شادى الركب يغنى بصوته الندى وهو يقول :

الى الله وجهى والرسول ومن يقم إلى الله يوما وجهه لايخيب
فكم تركنا من حميم مناصح وناصحة تبكى بدمع وتندب

---

(١) ليفها (٢) مكان بين مكة والطائف (٣) تعرف أخبارها

دعوت بنى غنم لحقن دمائهم وللحق لما لاح للناس لاحب
أجابوا بحمد الله لما دعاهم الى الحق داع للنجاح فأوعبوا
وكنا وأصحابا لنا فارقوا الهدى أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفوجين أما منهما فموفق على الحق مهدى وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبة وأذلهم عن الحق أبليس فخابوا وخيبوا
هرعنا الى قول النبى محمد فطاب ولاة الحق منا وطيبوا

وبينما هم فى سكرة الشعر وخمرة اللحن إذ صاح فيهم صائح

— هذه (نخلة) قد وافتكم يارفاق فلنتحسس أخبار القوم قبل الدنو منها

وخلف أكمة (١) هناك عسكر القوم حتى لايقع نظر احد عليهم وراح بعضهم يتسلق رؤس الجبال لمراقبة الطريق واكتشاف العير (٢) عن بعد

ثم جاء المساء ونشر الليل أجنحته الفاحمة على الفضاء . وآب الرقباء إلى مخيمهم قبل أن تقع عيونهم على شىء ، ثم تفقد بعض القوم بعضا فصاح أحدهم واعجبى! كأننا فقدنا سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان أم ماذا بى ؟ .

أصوات — أحقا ذلك ؟

حذيفة — نعم وأبيكم

---

(١) صخرة كبيرة (٢) الجمال

عبد الله بن جحش — لعلهما عاد إلى يثرب ساعة أن عرفا أن ألا تثريب على أحد ولا استكراه فى البقاء أو الانصراف . وأعوذ بالله من كل ظن أثيم

عكاشة — ولنصطبر إلى الغد لعلهما ذهبا فى بعض حاجاتهما فضلا الطريق

ثم أشرق نور الصباح . وراحت الشمس تنشر ذوائبها على الكون خيوطا من الذهب . ونسيجا من الزفرات المحترقة . والآهات المهتاجة ، وأنست جدية الموقف أمر الصاحبين المختفيين

ثم ابتدر القوم أبو حذيفة قائلا :

— نرجوا أن نلقى القوم اليوم لقاء حارا ، وأن لانعود بما عاد به حمزة بن عبد المطلب

عكاشة بن محصن — وماذا كان يستطيع حمزة أن يصنع ، وهو فى ثلاثين راكبا ، وأبوجهل فى نحو ثلاثمائة ؟ على أنه كان على أهبة النزال معه رغم ذلك . لولا أن حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى فانصرف بعض القوم عن بعض

واقد بن عبد الله — وما عذر عبيدة بن الحارث فى انصرافه عن أبى سفيان ومن معه (١) وقد كان فى ستين راكبا

أبو حذيفة — لعله قد غاب عنك أن أبا سفيان كان على رأس مائتين . وإن كان سعد بن أبى وقاص قد رمى بسهم ولعله أول سهم

(١) وهذه من السرايا التى أرسلها النبى أيضا قبل بدر

فى الاسلام . وأغلب الظن أن رسول الله لا يريد قتال قريش إلا بعد أن يستنفد كل الوسائل . فى سبيل اقناعهم بصواب فتح الطريق أمام الدعوة الاسلامية فى مكة بغير حرب . لقاء سلامة تجارتهم . فأخذ يباغتهم بهذه السرايا ويهدد قوافلهم بها . والا لجيش لهم جيشا عظيما يتكافأ مع عدد المحاربين المصاحبين للقوافل ، ولكن قريشا فوتت عليه كل أهدافه واتخذت لقوافلها طرقا أخرى غير معبدة ولا معروفة ، تخلصا من هذا التهديد . ولهذا خرج رسول الله فى غزوة (الابواء) حتى بلغ (ودان) يريد قريشا ، فلم يجدها ، ثم خرج إلى (بواط) يريد القافلة التى كان يقودها أبى بن خلف فى نحو الفين وخمسمائة بعير فلم يجدها وخرج إلى (العشيرة) ينتظر قافلة أبى سفيان فلم يجدها

عكاشة — كأنه لا بد من معركة حامية إذا التقينا بالقوم فى يومنا أو غد .

أصوات — بلا ريب

عتبة — ولكن هبوهم أكثر منا عددا وعدة ، فماذا يكون الموقف ثم لا تنسوا أن كتاب النبي غير صريح فى حربهم

عكاشة — كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله

حذافة — بل كيف نحاربهم فى الشهر الحرام (١)

عبد الله بن جحش — كما حاربونا وحدانا وجماعات ، وأخرجونا من ديارنا وأبنائنا ، ونكلوا بالعبيد والمستضعفين فينا ، واستولوا على مغانينا (٢) ومتاعنا وأموالنا ، انسيتم ما فعلوه ببلال بن رباح وعامر ابن فهيرة وأم عنيس وزنيرة ، أم نسيتم عمار بن ياسر وامه صفية

---

(١) روى أن ذلك كان فى رجب وهو من الاشهر الحرم (٢) منازلنا

التى قتلها أبو جهل بضربة حربة فى موضع العفة منها ، وما سمع القوم ذلك حتى ثارت ثائرتهم .

وبينما هم فى هذه الحالة اذا بأحد الرقباء ينحدر هابطا كانحدار الصخرة من قمة الجبل ونادى

الى السلاح .. فقد دنا مصرع القوم

فاختبأ واخلف الصخور ، وأرسلوا عيونهم ضيقة صوب الفرائس تلتقى اهدابها بحواجبها وأيديهم قابضة على الاوتار مشرعة وسط القسى . يتربصون بالقوم الدوائر . حتى كانت القافلة على مرمى النبال فالفوهم كثرة لا قبل لقلتهم بها . فنظر بعضهم إلى بعض نظرات الحيرة والتردد ما يصنعون فى مثل هذه الحال ، فقال حذيفة مغيظا من حيرتهم

والله لئن تركتم للقوم هذه الفرصة ، ليدخلن الحرم ، فيمتنعن منكم به ، ولئن قاتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام

عكاشة ـ لواقد بن عبدالله ـ هذا كبيرهم عمرو بن الحضرمى هناك ذو العمامة المطرفة . فخذ منه هدفك ، ورشه بسهمك لعله يهوى قتيلا

فصوب واقد سهمه اليه فأرداه لساعته

وما إن سقط عمرو من فوق بعيره حتى تصايح القوم ثم تلفتوا يمينا وشمالا ، ثم راشوهم بنبل آخر أصاب البضائع فوق الاباعر ، ففروا مذعورين لهذه المفاجأة الكريهة ، عدا بعيرين وقائديهما لم يستطيعا اللحاق بركب قريش فاستولت عليهما سرية المسلمين

هبت يثرب من قيلولتها على أصوات تهزج عن بعد ، متناسقة متحدة تردد قول حمزة بن عبد المطلب

إلا بالقوى للتحلم والجهـل ... وللنقد من راى الرجال وللعقل
وللراكبينا للمظالم لم تطـأ ... لهم حرمات من سوام ولا أهل
كأنا نبلناهم ولا نبل عنـدنا ... لهم غير أمر بالعفاف وبالعـدل
وأمر باسـلام فلا يقبلونه ... وينزل منهم مثل منزلة الهزل
فما برحوا حتى انتدبنا لغـارة ... لهم حيث حلوا نبتغي غاية الفضل
بأمر رسـول الله أول خافق ... عليهم لواء لم يكن لاح من قبل
لواء لديه النصر من ذى كرامة ... اله عزيز فعله أفضـل الفعل

وما ان دنا الركب من أبواب يثرب ، حتى كان فى استقباله الاطفال والشبان والشيوخ ، تحلق فوق الجميع سحابة كثيفة من التراب ، والنساء فوق المنازل يزغردن على وقع الاهازيج وينشدن انشودتهن المعروفة المألوفة :

طلع البدر علينا . من ثنيات الوداع الخ . .

ثم اخذ الصحابة يعانق بعضهم بعضاً ويهنىء بعضهم بعضا ، ثم تفقد على بن أبى طالب السرية ثم أعاد تفقدها ، ثم تراجع وامعن ، ثم قال اين سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان .

عبدالله بن جحش — ألم يصلا يثرب بعد .

على — بعد ؟! لا ورب الكعبة .

عبد الله — حقا ان بعض الظن اثم . . لقد ظننت انهما جاءا إلى يثرب بعد ان علما ان لا تثريب فى البقاء معنا أو الانصراف دوننا ، وعلى أى حال فأين ذهبا ؟ لا بد أن يكونا قد ذهبا لبعض حاجتهما فوقعا اسيرين فى يد قريش .

حذيفة — ليكن ذلك . . فان لدينا منهم أسيرين هما عثمان بن عبدالله ابن المغيرة ، والحكم بن كيسان وبعيرين ، وكثيرا من المتاع والبضائع

ثم علم رسول الله بقتال الصحابة لقريش في الشهر الحرام فامتنع عن تسلم الغنيمة حتى نزلت الآية : « يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام واخراج اهله منه أكبر عند الله ، والفتنة اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »

تسلم رسول الله عند ذلك الغنيمة وتبادل الاسرى مع قريش ، فأسلم الحكم بن كيسان احد الاسرى على يد النبي ، وأقام بالمدينة ، وأما عثمان بن عبد الله الاسير الثاني فقد سافر الى مكة ومات بها كافرا .

تقرير المصير

كانت بقعة مجهولة إلا لجفاة الاعراب، منسية إلا لقادة القوافل أجهدهم العطش وأعوزهم الماء، فحولتها جيرتها لحماة الرسالة، إلى المع بقعة فى وطن الاسلام، وصيرتها أخصب مكان للدراسة ومساجلة الاذهان، ونقطة التحول فى تاريخ الدعوة، والحد الفاصل بين ضعف المسلمين وقوتهم.

تلك هى (بدر) التى نسبت اليها الغزوة المعروفة بها والتى نسميها على هذه الصورة (تقرير المصير)

— ١ —

« إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله »
« على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من »
« ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »

قرآن كريم

أجواء مكة تتجاوب بصوت استغاثة . والناس تتدافع فى طرقاتها بالسوق والمناكب صوب هذا الصوت، غير عابئين بسلامة من يلقونهم فى الطريق من صبية ونساء وشيوخ، كأنهم سيل دافق يجترف ما أمامه، وقد ظلوا كذلك حتى ألفوا أنفسهم أمام عملاق فاحم، قد وقف على بعير داعي الاشفار متحول الرحل ، قد قميصه من أمام وخلف ، ثم راح يستغيث في بهر وعصبية ، ويلوح بساعديه فى الفضاء وهو يقول الغوث الغوث . . اللطيمة اللطيمة .

أصوات — ماذا دهاك ؟ تحدث تحدث .

المستغيث — أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه .. لا أرى انكم مدركوها . . الغوث الغوث .

صوت شهيق — مدركوها ؟ ! الويل لابن أبى كبشة (١)

انطلقت هذه الكلمة راعدة قوية ، وانطلقت خلف أصوائها سيقان

---

(١) كنية كانت تطلقها قريش على رسول الله سخرية به

المئات الي منازلهم ، وتركوا ضمضم بن عمرو الغفارى ، لفضول العجائز ، يستزيدونه من أخبار العير ، زمانا ومكانا ، وتجارة وحراسا ، وسط مناحة من البكاء والنحيب ، على أموالهم المهددة فى الطريق

ولم يقطع عليهم عويلهم ، إلا سقوط جسم على الارض ، فالتفتوا اليه فجأة ، فاذا بهم أمام اعرابى ملوح غليظ الشفة ، أفطس الأنف ، دقيق الساقين ، يفتح عينيه فى بطء على مشاكسة الأطفال ، يرفعون عنه ، ازاره تارة ، وينازعونه زمام ناقته تارة أخرى ، فيسب ويصخب ، حتى إذا لم يسعفه الصخب بصق عليهم عن بعد في حدة وغضب ، ثم يتحامل على نفسه ويحاول الوقوف ، ولكنه لا يكاد يقف حتى يأخذ فى الترنح يمينا وشمالا ، ثم لا يلبث أن يخرج من بين ثيابه شيئا يرفعه إلى فمه أغلب الظن أنه عجوة ، فتارة يدرك ذلك ، وأخرى تلتقفها الاطفال من يده ، فيحاول أن يجرى خلفهم ، فلا تسعفه قدماه ، ولا تطاوعه ناقته ، فيكتفى بالبصق عليهم مرة أخرى ، ثم يستوقفهم بعد ذلك ليحذرهم فى وطانة النخور ، من أكل ما سلبوه منه ، لأنها ليست عجوة فقط ، بل هي ذراع الهه ، كأن الهه قد أحل له أكل ذراعه دون سواه !

ثم ضاق النظارة به ذرعا ، فراحوا يتهرونه ويطردونه فولى عنهم وهو يغنى

تبكون عيرا قد أغار محمد ... ورجاله فى غلظة فاستاقها
واحب من هذا البكاء مدامة ... أهوي بما ملكت يداى عناقها
خلوا البكاء على النجائب واشربوا ... خمرا تنسي همه من ذاقها

وكان السائر فى أفنية مكة لا يقع نظره إلا على رجل يسرج جواده مسرعا . وآخر يدخل فى درعه لهفا . وثالث يلتمس خوذة رأسه عجلا .

ورابع ينظف سيفه حذرا ، أو يختصر (١) حربته متلفتا ، وخامس يودع أهله وولده مأخوذا . وسادس يستحث أمامه ابلا قد وهبها للظهر (٢) أو الذبح راضيا ، وجماهير متزاحمة أمام شاحذى الاسياف يعملون نهارا وليلا فى ضوء الاحطاب ، وشرائط الدخان تنبعث من المنازل ، ثم تنعقد فى سماء مكة سحابة سوداء ، تحمل رائحة الخبز زادا للمقاتلين ممزوجة بنفثات الخوف والقلق على فلذات الاكباد ، ووفود تتلاقى متناكرة في دروع الحديد والزرد ، بساحة المسجد تقدم القرابين عند اقدام الالهة او تستقسم الازلام لدى الكهان ، أو تطوف مودعة ضارعة حول البيت الحرام ، داعية لقريش بالتوفيق والنصر على محمد وأصحابه ، وخلف هذا كله ترى الحكم بن هشام (٣) وعقبة بن أبى معيط ينتقلان فى سرعة العاصفة ، من حى الى حى ومن منزل الى منزل ، يستحثان الزعماء ويستنهضان الشبان الى القتال ، وهما يقولان النفار .. النفار . . النفار قبل حلول العار ، وقد ظلا كذلك حتى وقفا على رأس أبى لهب عند الكعبة وناداياه ، الى الحرب سيد القوم

أبو لهب - سأرسل عنى العاص بن هشام بأربعة آلاف درهم قد أفلس لى فيها

الحكم - وانت يابن خلف

أمية - انى والله كما ترى رجل مسن بدين ، لم تعد لى خفة المحاربين ولا أقوى على لأواء السفر

الحكم - مقاطعا - ماذا تقول وأنت سيد قومك ، ينفرون

---

(١) يضعها فى خاصرته (٢) للركوب أو طعام المحاربين (٣) المعروف بابى جهل

يتمارك ويقبعون ببقائك ، فاذا أصررت على موقفك . فالأولى بك أن تستجمر كما يستجمر النساء (١)

عقبة — بل فاكتحل ...

فاحتقن وجه أمية وأشاح بيده يضرب الحكم على وجهه لولا ان تراجع الحكم ... ثم قال:

قبحكم الله ... هيا فابتاعا لى أعظم بعير فى هذا الوادى ، لتعلمون غدا من الذى يستجمر ويكتحل ، ثم رجع أمية إلى الوراء قليلا ، ثم مال بصدره إلى الامام ، ثم اعتمد على جدار الكعبة بيد وبالأخرى على يد الحكم ، ثم جمع كل قوته ونهض واقفا كأنه الدب يمشى على مؤخرتيه ثم قال:

وكيف ترحلون جميعا وتخلفون مكة متاعا سهلا لبنى بكر ، وبيننا وبينهم من الترات (٢) ماتعلمون

سراقة بن مالك — خل عنك كنانة ، فأنا زعيم بثاراتها كفيل بمنع غاراتها . وإنى جار لكم منها ، قمين بألا يحدث منها ماتكرهون

* * *

وكان الواقف بين الشعب فى طريق المدينة ، ضحوة اليوم الثالث ، يرى سحابة كثيفة من التراب تتقدم طليعة الفرسان ، تلمع تحتها صفائح الخوذات والدروع ، ومقابض السيوف وأسنة الرماح ، لمعان الأنجم فى رقعة الليل البهيم ؛ وخلف هؤلاء الفرسان قطر الابل تتواثب

(١) يضع البخور داخل ثيابه وهى عادة نسوية عند العرب

(٢) جمع ترة وهى الثأر

متتابعة تحمل الرجال والازواد ، وزقاق (١) الخمر ، تتوسطها هوادج تختدر فيها القيان (٢) وما معهن من الدفوف والمزاهر ، وكأنها غابة كثيفة تكشف عن سوقها هوج الرياح تارة ، وتختبىء فى سواد التراب تارة أخرى ، وخلف هذا كله ، جيش من العجائز تحملهم عصيهم . يحاولون متابعة الجيش فى لهفة واعياء ، وجحافل الاطفال قد تمنطقوا بالليف واختصروا قضبانا من الجريد والحديد تشبها بالمحاربين — حتى وصلوا كداء (٣) وعندها صاح الحكم بن هشام

هذا مكان الفراق ألا تعودوا أيها الشيوخ ... وأوبوا أيها الغلمان ، فعلت اصوات بالبكاء والنحيب ، وراح الحكم يتجول بفرسه ليفصل بين المودعين والمحاربين ، فكانت ساعة جازعة رهيبة ، امتزجت فيها دموع الشوق بعبارات الفراق . وآهات الحب بزفرات الأمانى . ثم وقف الحكم يتفقد الجيش فى زهو ويستعرضه فى خيلاء ، وما أمعن فى السير حتى تعالت الأصوات أكثر مما كانت ، مزيجا من الكلام . قام على شرحه تلويح الأيدى وتدافع الزفرات . ثم أخذت أشباح الجيش تختفى رويداً رويداً بين أعين غريقة فى سيال من العبرات ، حتى إذا لم يبق فى ذيل الافق إلا رجع خفيت اصهيل الخيل وترجيعها . عاد المودعون إلى مكة مشدوهين كالمنصرفين من جنازة عزيز ، بعد أن واروه التراب ، لا يكاد يحس الواحد منهم بجوار صاحبه ، لولا وقع الخفاف على وجه الارض

ولم يقطع عليهم صمتهم إلا صوت أبى لهب يحدث المطلب بن أبى وداعة قائلا :

(١) جمع زق وهو القربة الصغيرة (٢) يستتر فيها المغنيات (٣) مكان على مشارف مكة .

— بالتصاريف الاقدار ! ايصبح لابن أبى كبشة كل هذا الشأن حتى تخرج اليه قريش بكل هذا الجيش العرمرم.

— المطلب قد يكون الاهتمام بموقعه من طريق القوافل ، أكثر من الاهتمام بما وصل اليه من قوة الشأن ، على أنى أرى وحتك انه قد أمر أمره حتى لأخشى أن يتحقق الشطر الثانى من رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب (١)

أبو لهب — لا تدع عقلك فى يد هؤلاء الذين أصيبوا بحمى التنبؤ من بنى هاشم ، لم يكفهم أن يتنبأ رجالهم حتى تنبأ نساؤهم ، وإذا كان قد وقع شطر مما أشيع عن رؤيا عاتكة . فهذا بلا شك من طريق المصادفات .

المطلب — غير انى لأراها ملحمة تدعو إلى الاعجاب والعجب من رجل بلغ من قوة تأثيره فى أصحابه ، أن يحارب أفراد الأسرة بعضهم بعضا ، فعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث . سيقاتلان ابن عمهما على ابن أبى طالب ، وعبد الكعبة (٢) يقاتل أباه أبا بكر ، وأبو العاص بن الربيع يقاتل صهره محمد بن عبد الله ، والعباس بن عبد المطلب ينازل أخاه حمزة بن عبد المطلب ، والوليد وعزيز ابنا عتبه يحاربان أخويهما أبو حذيفة ومصعب ، وشيبة بن ربيعه يقاتل أخاه معمر بن الحرث

(١) رأت عاتكة عمة رسول الله رؤيا حضور رجل يدعو قريشا لتخليص عيرها التى تعرض لها محمد وأصحابه وان هذا سيكون سببا فى معركة كبرى بين قريش ومحمد تكون الدائرة فيها على قريش

(٢) اسم عبد الرحمن بن أبى بكر قبل اسلامه وكان راميا ماهرا جاهلية واسلاما .

(٣) زوج زينب بنت رسول الله وقد أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه

والجراح اليثربى — كما علمت — يحارب ولده أبا عبيدة بن الجراح (١) والأسود بن عبد الأسد يقاتل أخاه عبد الله ، وعامر الحضرمى يقاتل أخاه العلاء (٢ وهكذا لم يبق عندى بعد هذا من أمل في القضاء على هذا الرجل (٣)

أبو لهب — خل عنك يا هذا وهون الأمر على نفسك ، فستأتى قريش غدا بالأعاجيب ، وما مع محمد سوى حفنة من الرجال

المطلب — انى أرى ما لا ترى ، وان سواد قريش قد لا تكون كفيلة بهزيمة هذه الحفنة ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة

* * *

الظلام حالك ، والسكون ملتفع بالصمت ، والعيون غافية إلا عين على بن أبى طالب وصاحبيه ، خرجوا تحت ستار الليل إلى ماء « بدر » للبحث عن قريش ، وهنالك اختبأوا خلف أكمة ينتظرون فريستهم فى اناة واصطبار ، كأنهم التماثيل طوحت بها أيدى العفاء ، مشرفين من على على البئر تنتثر على صفحتها حبات النجوم سائلة رجراجة وئيدة ، حتى سمعوا وقع أقدام تدك الارض عن بعد ، وحديثا حائرا بين اثنين يختلط فيه اسم أبي سفيان بالعير ، وتمتزج فيه أخبار مكة باسم الحكم بن هشام ومحمد بن عبد الله ، فربت على على كتف صاحبيه ، يتأكد يقظتهما لئلا

---

(١) وفيه نزلت آية — لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه (٢) العلاء الحضرمي من فضلاء الصحابة وقد روى فى خلافة عمر أن الماء حال بينه وبين اعدائه فدعا الله بدعاء فجمد الماء وسار فوقه كأرض صلبة (٣) يقصد محمدا

يكون نسيم الليل قد داعب جفونهما، يهيب بهما الى الاستعداد لاستقبال الفنيصة ، وما أن ألقي أحدهما بدلوه، ووقف الثانى يرقب الطريق بعينين حائرتين فى إهاب أسود ، حتى انحدروا صوبهما كما ينحدر الصخر من قمم ، واستطاع أحدهما أن يفر هاربا ، ووقع الثانى أسيراً فقادوه إلى معسكر المسلمين ، فألفوا رسول الله يصلى ، فراحوا يتوجهون اليه بالأسئلة الآتية :

على ـ ما اسمك ياغلام

الغلام ـ يسار مولى عقبة بن ابى معيط

على ـ ومن كان معك

يسار ـ أسلم غلام بنى الحجاج

الزبير ـ أين يوجد أبو سفيان الآن

يسار ـ أبو سفيان ؟ لعلك تقصد قريشا

الزبير ـ بل أبو سفيان بالركب

يسار ـ مع عيره بالشام

سعد بن أبى وقاص ـ يالك من غلام خبيث .. دعنا من أبى سفيان ومكانه ، وخبرنا عن عدد من معه من الأباعر والمحاربين

فتلفت يسار يميناً وشمالا فى دهشة وعجب لما يلقى عليه من أسئلة لم يفهم سرها بعد

فظن القوم أن هذا منه إمعان فى المكر ، فوكزه على فى خاصرته وكزة تثنى لها فى ضجر وتأوه ، ثم قال له :

ـ انك تكتمنا أخبار أبى سفيان ومن معه ، وتضللنا بحديث مختلق

عن قريش

يسار ـ لست وحقك إلا راوية من روايا قريش ؟ جاءت بخيلها ورجالها وأحباشها وقيانها ، وانها مرت بـ (مرالظهران) وذبح لها هناك الحكم بن هشام ، وكان فيما ذبح جزور فيه حياة ، فى المعسكر فما بقى خباء من أخبيته إلا أصابه من دمه ، فتشاءم بتوعدى من هذا فقاموا راجعين ، ثم وصلوا بعد ذلك الى (عسفان) وكان ان ..

فملق سعد فى وجهه منكرا عليه موقفه ، ووكزه وكزة أخرى ألصقته بالأرض ، فراح يبكى ، ورأى أن يعدل موقفه ولو بالكذب فأخذ يقول :

ان ركب أبى سفيان على مقربة من (بدر) وان معه الكثير من العير والتجارة .. وان معه .. ولم يكد يتمها حتى كان رسول الله قد أتم صلاته ، فأشار بيده اشارة الكف عن ايذائه ، والكف عن مواصلة الحديث معه ثم قال لأصحابه :

ـ اذا صدقكم ضربتموه ، وإذا كذبكم تركتموه ، انه يحدثنا ان قريشا جاءت وانه قد صدق ، فقد خرجت قريش تجير ركبها ثم دعا الغلام وسأله :

ـ كم عدة القوم

يسار ـ لا أدرى والله انهم كثير عديدهم ، شديد بأسهم

رسول الله ـ كم ينحرون كل يوم من الابل

يسار ـ يوما تسعا ويوما عشرا

فالتفت الرسول الى أصحابه وقال

القوم بين التسعماية والالف . ثم وجه حديثه الى يسار وقال له :
ومن فيهم من أشراف قريش
يسار ـ عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو البخترى بن هشام ، وامية ابن خلف ، والحكم بن هشام ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدود ، وغيرهم كثير ..

سكت الرسول قليلا ثم نهض واقفا ونادى فى قومه
أيها الناس هذه مكة ، قد القت اليكم افلاذ أكبادها . فأشيروا على..
فقام أبو بكر وعمر ، وتحدثا برأيهما ثم وقف المقداد بن عمرو وقال
يارسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب انت وربك فقاتلا اناهاهنا قاعدون ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انامعكما مقاتلون ، ثم جلس وساد المجلس صمت عميق ، الا صوت رسول الله يقول أشيروا على أيها الناس
فقام سعد بن معاذ حامل راية الانصار وقال
لكأنك تريدنا يارسول الله
رسول الله ـ أجل

سعد ـ لقد آمنا بك ، وصدقناك . وشهدنا ان ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك علي ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ومانكره ان تلقى بنا عدونا غدا ، إنا صبر على الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عيناك ، فسر بنا على بركة الله

تهلل وجه النبي صلى الله عليه وسلم بالبشر، وسرت فى أعضائه روح جديدة من النشاط . ثم قال سيروا وأبشروا فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم . ثم شخص الى السماء ضارعا ودعا لأصحابه قائلا

اللهم انهم حفاة فاحملهم . وعراة فاكسهم. وجياع فأشبعهم ، وعالة فأعنهم من فضلك

ثم ارتحل الجيش صوب بدر وراجزهم يشدو وهم يرددون خلفه

ما انتقم الحرب العوان منى باذل عامين حديث سنى

لمثـــل هـذا ولدتنى أمى

— ٢ —

اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها
وفخرها تكذب رسولك ، اللهم فنصرك
الذى وعدتنى .. اللهم ان تهلك هذه
العصابة لا تعبد بعد اليوم فى الأرض
فانجزنى عهدك ووعدك الذى وعدتنى .

بركان تطايرت أشلاؤه ، وتمزقت أجزاؤه ، وراح يرسل أنفاسه الأخيرة السنة من النيران متراقصة ، وسحائب من الدخان ملتوية معتكرة فجاء الناس لمشاهدة آثاره رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . فاختلط فى ساحته رغاء الابل بصهيل الخيل . وامتزج حوله صوت المتناقشين بنداء المنادين ، ذلك هو معسكر قريش فى ضاحية (الجحفة) تستجم فى خيامها للزحف ، وتنضج من طعامها لمواصلة السفر ، وتستعد لاجارة أبى سفيان وما معه ، أو لحرب محمد وأصحابه ، إذا كان لابد من ذلك ..

وأمام خيمة عالية كأنها قبة مسجد فسيح ، رجل مديد القامة أبيض الوجه ، حديد التقاسيم يتمشى مطرق الرأس ذهبة وجياة ، وقد تدلت ذؤابتاه ، واختصر سيفاً عريضاً مفضضاً ، وقبض من خلف

ظهره على يد بأخرى . ولم يفقه من تفكيره إلا صوت نوفل بن خويلد يناديه يا أبا الحكم . فوقف مكانه فجأة ، وشخص صوب مناديه دون أن يرد عليه بأكثر من نظرات حادة صوبها اليه ، فقال له نوفل

ـ أسمعت بالرؤيا الجديدة شامها (١) جهم بن أبي مخرمة بن المطلب

الحكم هازئا ـ لعلها على غرار رؤيا بنت عمه عاتكة

نوفل ـ ضاحكا ـ حذوك النعل بالنعل

الحكم ـ هازئا ـ وهذا متنبىء آخر من بني المطلب . ولكنه سيعلم غداً ـ إذا التقينا ـ على من تكون الدائرة، على قريش أم على محمد وجماعته؟

ثم تنفس حارا وعاد إلى اطراقته وهو يقول لصاحبه

دعنا وابيك من هؤلاء المتنبئة ، حتى ننظر مافعلت الأقدار بالعير.

ولم يتمها حتى سمع صوتاً يناديه ، فشخص إلى مصدر الصوت ، فاذا به مخرمة بن نوفل . يشق طريقه اليه مسرعا فى نشوة وسرور ، غير حافل بالمستفسرين عن العير ، والمهنئين له بسلامة الوصول (٢) حتى وصل إلى خيمة الحكم . وخلفه زعماء قريش تتداعى سراعا يستطلعون ماجاء من أنباء أبي سفيان وتجارته، فبادره الحكم فى عصبية قائلا له :

ما وراءك ؟ تحدث قبل أن تحتشد الدنيا حولنا

مخرمة ـ لقد تقدم أبو سفيان العير حذراً يتنطس (٣) الأخبار ، حتى ورد ماء عليه مجدى بن عمر ، فسأله هل أحسست أحداً فقال له : ما رأيت أحداً أنكره ، الا انى رأيت راكبين اناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن (٤) لهما ثم انطلقا ، فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ

---

(١) رآها (٢) وذلك لان مخرمة ممن كانوا مع أبي سفيان (٣) يتعرف (٤) وعاء

من أبعار بعيرها فقته. فاذاهو نوى، فقال هذه والله علائف يثرب. فرجع إلى أصحابه سريعا . فضرب وجه عيره عن الطريق .

الحكم ـ مقاطعا ـ أو جزيا هذا . ثم ماذا

مخرمة ـ ثم ساحل بها وترك بدرا يسارا

أصوات شكراً للآلهة .

ثم واصل مخرمة كلامه قائلا : إن أبا سفيان يقول إذا كنتم قد خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا .

الحكم — والله لا نرجع حتى نرد (بدراً) فنقيم عليه ثلاثا ، وننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمور ، وتعزف علينا القيان (١) وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدا .

الأخنس بن شريق — مالنا والحرب إذن وقد نجى الله لكم أموالكم

الحكم ـ غاضبا — قد امتلأت والله جبنا

فاحمر وجه الأخنس ونهض غاضبا . ثم سار إلى قومه ونادى فيهم : يا بنى زهرة (٢) قد خلص الله لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل . وإنما فقرتم لتمنعوه وماله . فاجعلوا بى جبنا وارجعوا . فانه لا حاجة بكم فى أن تخرجوا فى غير منفعة .

أصوات من بنى زهرة — هيا . . هيا . .

بنى عدى بن كعب — مرحى . . مرحى . .

طالب بن أبى طالب — وإنها والله لقالة الحق قالها الأخنس بن شريق

زمعه بن الأسود — انها والله لقالة السوء قالها الأخنس ، وإنا لقد عرفنا أن بنى هاشم وإن خرجوا معنا ، فان هواهم مع محمد .

---

(١) جمع قينة وهي المغنية (٢) كان سيدا مطاعا فيهم .

طالب — قل ما شئت يابن الأسود فانى لا بد راجع

زمعة — ولكن بخفى حنين

طالب — بل بالعير كلها، ثم بشىء أعزمن ذلك (١) ثم أنشد يقول :

يارب إما يغزون طالب
فى مقنب من هذه المقانب
فليكن المسلوب غير السالب
وليكن المغلوب غير الغالب

ثم خشى الحكم أن تشيع الهرقة فى قريش ، وأن تعدل منها بطون أخرى عن الحرب ، قانعة بنجاة العير . فأمر بالتجهيز والسير . وراح يستحث هذا ، ويدفع ذاك ، حتى رحلوا ونزلوا (بالعدوة القصوى) خلف كثيب (٢) من الرمل يكمنون خلفها ، ثم استدعى الحكم عمير بن وهب الجمحى ، وأسر اليه بما أسر ، فسارع عمير الى جواده الأبلق فامتطاه ، ثم راح يتصعد الروابى حذرا ينظر عن يمين وشمال ، ثم نزل ببطن الوادى . وراح يطوف به يسبقه حرصه ، وتتبعه التفاتاته ، ثم عاد إلى القوم وهو يرتجف راعشا ثم قال :

— إن عدة القوم ثلاثمائة رجل ، يزيدون أو ينقصون قليلا ، ولكنى رأيت الولايا (٣) تحمل المنايا ، ونواضح يثرب تحمل الموت

---

(١) يشير الى ارتياحه ورجوعه قبل أن يحارب رسول الله
(٢) كومة عالية .
(٣) جمع وليه وهو مايوضع على ظهور المطايا

الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى رجلا يقتل منهم حتى يقتل رجلا منكم ...

فامتقع وجه العاص بن هشام وزاغ بصره وسقط القدح من يده ، فزجره الحكم ونهره . ثم واصل عمير كلامه وقال :

— فاذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم .

حكيم بن حزام — يا أبا الوليد : (١) إنك كبير قريش الليلة . وسيدها المطاع فيها، فهل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم الى آخر الدهر .

عتبة بن ربيعة — وما ذاك يا حكيم ؟

حكيم — ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمى (٢)

عتبه — على ذلك ، انما هو حليفى فعلى ديته ، وما أصيب من ماله ، ثم اعتدل وكان متكئاً وقال :

— يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئا . والله لان أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر اليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فان أصابوه فذاك الذى أردتم . وان كان غير ذلك لم تتعرض لما تكرهون .

الحكم — انتفخ والله سحرك (٣) حين رأيت محمداً وأصحابه . كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، ولعلك قد رأيت ابنك بينهم فتخوفت عليه .

---

(١) كنية عتبه بن ربيعة (٢) قد سبق ان قلنا ان عمرا هذا قد قتلته سرية عبد الله بن جحش وهو فى طريقه الي مكة مع تجارة لقريش من الشام (٣) بفتح السين وسكون الحاء كناية عن جبنه .

عتبة — ستعلم من انتفخ سحره أنا أم أنت يا مصفر إسته (١)

ثم التفت الحكم الى عامر الحضرمى وقال :

— هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس بعد أذ رأيت ثأرك بعينك. فقم وانشد حفرتك ومقتل أخيك بين الناس .

فنهض عامر وكشف عن رأسه وصرخ بين القوم :

واعمراه . . . . . واعمراه . . . . . .

فاجتمع الناس حوله . وتنادوا بالحرب واويل لمحمد وجماعته .

* * *

نادى رسول الله عند الفجر ، العملاة الصلاة عباد الله ، فتداعى المسلمون من كل حدب وصوب، ينفضون عن ثيابهم قطرات المطر ، نفذت اليهم من خلال الشجر ، أوانحدرت عليهم من بين الصخور ، ثم انتظموا خلفه صفوفاً يؤدون حق الله عليهم . وكلهم ينادى ربه فى صلاته بكلمات خافتة لعلها طلب الاستشهاد ، ثم قام صلى الله عليه وسلم ، فتفقد الحوض الذى أقامه الحباب بن المنذر بن الجموح ، وقد امتلأت جوانبه بماء المطر يهمى طول الليل غزيراً ، ثم تقدم اليه صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ وقال :

يانبى الله ، ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عنده ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببناه . وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا . فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا

---

(١) كناية عن ضعف الرجولة فى الحكم بن هشام وكان قد عرف عنه ذلك .

أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك

فأثنى رسول الله على سعد . وأشار ببناء العريش . ثم دعا أصحابه وأخذ يصفهم للقتال ، فألفى قريشا تتطاول بأعناقها ، وترنو بأبصارها إلى المسلمين من خلف الرمال فتوجه إلى الله ورفع يده الى السماء وقال :

اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد بعد اليوم فى الأرض . فأنجزنى عهدك الذى وعدتنى .

ثم التفت إلى أصحابه وقال :

لا تحملوا عليهم حتى آمركم . وان اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل . وانى عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لاحاجة لهم بقتالنا . فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله . ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله . ومن لقى العباس ابن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله . فانه إنما خرج مستكرها .

وبينما كان رسول الله يخطب أصحابه إذا بالأسود بن عبد الأسد المخزومى يندفع من بين صفوف المشركين كالسهم المارق وهو يقول :

أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو أموتن دونه

فانبرى له حمزة بن عبد المطلب وتلقاه بضربة شطرت ساقه ، فهوى على ظهره ، ينطف الدم منه . ولكنه راح يحبو صوب الحوض مكابراً وجاء هدمه . فعاجله حمزة بضربة أخرى فقتله . فانطلقت بقتله الشرارة الأولى من نيران الحرب بين قريش والمسلمين .

* * *

— ٣ —

والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم
رجل فيقتل صابراً محتسبا مقبلا غير مدبر
إلا ادخله الله الجنه .

حديث

وقفت قريش فى كثرتها وسلاحها ، تنظر إلى المسلمين بعين زارية ، وقلوب ملتهبة وسيوف مسلولة ، وأقواس غامرة (١) ورسول الله يشرف من عريشه على الجميع ، ويحرك لسانه بما لم يكن يسمعه أحد ولعله يستنجز الله وعده فى الفوز . وينظر بعين الأمل والرجاء فى النصر إلى معاذ وعوف ابنى الحارث، وعبد الله بن رواحة، يتقدمون بأقدام ثابتة لمنازلة عتبة بن ربيعة بن أخيه شيبة وولده الوليد . وما قطع عليه حبل دعائه الا صوت عتبة يقول :

— يا محمد اخرج لنا أكفاءنا من قومنا فما لنا بهؤلاء من حاجة .

رسول الله — قم ياحمزة بن عبد المطلب ، قم يا على بن أبى طالب ، قم ياعبيدة بن الحارث .

---

(١) وهكذا يقول الله « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

عتبة ـ من القوم.

حمزة ـ أنا من تعرف وهذا على ابن أبى طالب وهذا عبيدة بن الحارث

عتبة ـ نعم أكفاء كرام . إلى النزال

فاذا بالسيوف تصعد وتهبط ، وتيمن وتيسر ، والأقدام تتقدم وتتأخر ، وتطرد وتنعكس ، وكلا المعسكرين قد ربطوا على قلوبهم ، وجمعوا من أنفاسهم ، واستحالوا عيونا غادية رائحة مع غدو المتنازلين ورواحهم. وأنياب تبرز بالغيظ وتصر بالحقد ، حتى كانت طعنة من حمزة هوى تحتها شيبة بن ربيعة ، مدرجا بدمه فنفر المشركون أفواههم . واتسعت محاجرهم ، بينما كبر المسلمون. ثم كانت طعنة من عتبة ، أصابت فخذ عبيدة فخاص لها المشركون ، وأرسلوا سيوفهم تتمايل فى الفضاء ، ولكن على بن أبى طالب لم يدعهم فى أفراحهم طويلا ، بل عاجل خصمه الوليد بن عتبة بضربة خر تحتها صريعا لاينبس ببنت شفة ، ثم كر مع حمزة على عتبة فأجهزا عليه ، بعد أن نالته ضربة من خصمه كسرت ساقه . ثم حمل عبيدة بن الحارث حتى وضعه بين يدى رسول الله ، فنظر إلى رسول الله بعين الحب والرجاء وقال له فى لهفة :

ألست شهيداً يارسول الله ؟

ـ رسول الله ـ بلى ..

عبيدة ـ لو كان أبو طالب حياً لعلم انى أحق منه بما قاله عن نفسه ، حيث يقول :

أنسلمه (١) حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل .

---

(١) بضم النون وسكون السين وكسر اللام وضم الميم . ولعله بيت قاله أبو طالب دفاعا عن رسول الله معناه لا نسلمه حتى نموت حوله وننسى أبناءنا وزوجاتنا .

فنظر اليه رسول الله حنواً ، ثم غفا غفوة سريعة أفاق على أثرها وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر . سيهزم الجمع ويولون الدبر .

وما أن رأت قريش مصرع أربعة من بنيها قبل أن ترى مصرع مسلم واحد ، حتى غاث حميتهم ، وانفجر بركانهم ، وكروا على صفوف المسلمين مشاة وركبانا ، والمسلمون يذودون عن مواقعهم بالنبال فى ثبات وسداد . ورسول الله واقف فى عريشه على تلك الربوة العالية يشرف على المعركة ، ويرسل أوامره إلى حمزة وعمر وعلى ، ثم حال مثار التراب بينه وبين الاشراف على سير القتال ، فنزل الى مقربة منهم وخلفه سعد بن معاذ فى كوكبة من الأنصار ، ثم عاد وحوله هذا الحرس لئلا يكر المشركون من خلف العريش على غرة . ثم وضع سعد بن معاذ أصبعه على فمه كأنما ندم لشىء أو وقع أمامه مكدر ثم قال :

هذا مهجع مولى عمر بن الخطاب قد سقط بين الصفوف شهيداً بيد عامر الحضرمى . وسكت هنيهة واستطال بعنقه هنا وهناك ثم قال :

وهذا حارثة بن سراقة قد قصد الى الحوض ليشرب منه — فراشوه بسهم فسقط دونه ظامئاً شهيداً . وهذا حارثة بن قيس قد صرع بسهم طائش ولما يزل يافعاً .

كان سعد بن معاذ يقول هذا ورسول الله يتابعه بنظرة تختلج فيها عوامل الألم والأمل والخوف والرجاء ، ثم سمع الحكم بن هشام ينادى فى قومه لا يهولنكم مصرع شيبة ومن معه فانهم عجلوا . فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه بالحبال . لا تقتلوهم خذوهم باليد . فمال صلى الله عليه وسلم الى الأرض بيده وأخذ منها قبضة من

الحصي ثم دنا من القوم وحثاهم بها فى وجوههم وقال — شاهت الوجوه (١) ثم التفت إلى أصحابه وقال : شدوا عليهم (٢) ، والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، فتزاحفوا متراصين كالبنيان المرصوص مستأسدين كالليوث الجائعة .

وما سمع عمير بن الحمام (٣) ذلك من رسول الله ، وكان قد جلس ليتبلغ ببعض تمرات لما تزل فى يده ، حتى قذف بها وقام من فوره هو يقول :

بخ بخ (٤) فما بينى وبين الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ، ثم امتشق سيفه وانقض بين الصفوف وهو يقول :

ركضا الى الله بغير زاد
إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد
وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

ثم التقى الجمعان ، واشتدت المعركة ، وثار التراب ، ولمعت السيوف ، فصحب رغاء الابل صهيل الخيل ، وامتزج التكبير بأراجيز التحريض ، واختلطت الآهات بعبارات التهليل . فاستحالت ساحة القتال قطعا من الليل المظلم ، تتهاوى كواكبه على رؤوس الخلائق ، فتفرى جلودهم

---

(١) قبحت (٢) كروا عليهم بقوة (٣) بضم الحاء وفتح الميم أى الموت أول شهيد من الانصار (٤) كلمة تعجب واستحسان

وتمزق أجسامهم . فترتفع أصواتهم بالأسى والأنين ، أو يودعون الدنيا على خير دين ، ثم أخذ الظلام يبتسم عن ضوء النصر ، وبدأ المسلمون يفدون بالأسرى والغنائم إلى حيث العريش .

ثم شب أبو بكر على مقدمة أصابعه ، وأخذ يميل بعنقه يمينا وشمالا وهو ضاحك السن ، فنظر اليه سعد بن معاذ وقال :

— ما يضحكك أيها الصديق .؟

أبو بكر — لقد أسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف وولده ، فعثر بهما غريمهما بلال بن رباح (١) فرفع السيف ليقتله وعبد الرحمن ابن عوف يمنعه عنه والمشادة بينهما لا تزال قائمة .

فتنفس سعد بن معاذ عن ألم دفين ولم يقل شيئا

رسول الله ـ لكأنك ياسعد تكره مايصنع الناس

سعد ـ أجل والله يارسول الله. انها أول وقعة أوقعها الله بالمشركين. فالاثخان فى القتل أعجب إلى من استبقاء الرجال

أبو بكر ـ لعل الله يحقق رغبتك فيمن بقى من قريش . ثم ألا يكفى اثخان كل هؤلاء الصناديد ؟! هذا نبيه ومنبه ابنا الحجاج، وزمعة وعقيل والحرث أبناء الأسود ابن عبد يغوث ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وغيرهم قد نيفوا على العشرين وأضحوا صرعى تحت أقدام المجاهدين . فهلا رضيت ان نستأثر ببعض الأسرى لعل فيهم للمسلمين نفعا ، على ان المعركة

---

(١) لقد كان بلال عبدا لأمية هذا وطالما أجاعه وعذبه ووضع الصخرة العظيمة على صدره ويقول له لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد . ولم يكن لبلال من جواب إلا أن يقول أحد أحد الله أحد .

لاتزال دائرة . وهاهم المشركون يتساقطون من الصفوف تساقط الأشجار فى الخريف

وما أسكت الصاحبين عن الحديث إلا صوت من صفوف قريش ينادى الفرار الفرار . . النجاء النجاء . .

فاستحال الشجاع جبانا ، والنسر عصفوراً مهيض الجناح ، واللواء خرقة ممزقة ، وتلاشت صفوفهم فى كل ناحيـة كما يتلاشى الهشيم أمام رياح العاصفة

فسجد النبى لله شكرا . ثم أخذ الصحابة فى تضميد الجرحى بالزيت الدافىء وتـكبيل الأسرى بالحبال وجعل الغنائم فى صعيـد واحد ، ورسول الله يكرر الشكر لله والثناء عليه ، ثم أمرهم ان يلتمسوا الحـكم ابن هشام فى القتلى وانظروا ـ ان خفى عليـكم ـ إلى أثر جرح بركبتيه فانى ازدحمت وهو على مأدبة لعبـد الله بن جدعان ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبتيه ، فجحش جحشا(١) لم يزل أثره فيه بعد، ثم توجه إلى الله وقال :

أللهم لا يعجزنك

ثم وافى العريش معاذ بن الجموح مصفر اللون منهوك القوى . منحنياً إلى ناحية الشمال والدم يسيل منه غزيراً

فبادروا اليه يعينونه على السير ، وسارعوا إلى احضار الزيت الدافىء يغمسون فيه مـكان الجرح منه ثم سأله على بن أبى طالب

ـ ماخطبك ياأخاه ؟ ؟

---

(١) جرح

معاذ — سمعت القوم قبل اشتداد المعركة يقولون ان أبا الحكم لا يخلص(١) اليه شيء فلما سمعتها جعلته من شأني وصمدت نحوه. فلما أمكنني الله منه، حملت عليه فضربته ضربة شطرت قدمه بنصف ساقه. فضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح ذراعي لاتصلها بجسدي إلا جلدة من جنبي، ثم أجهضني القتال عنه. ولقد قاتلت عامة يومي وانى لأسحبها خلفي. فلما آذنني وضعت عليها رجلي ثم تمطيت بها حتى طرحتها، ثم رأيت معوذ ابن عفراء قد طعنه بنصل واختفى فوقع على الأرض(٢) ولا أدري ماحل به بعد ذلك

ولم يكد معاذ يتم كلامه حتى جاء عبد الله بن مسعود وقذف بين يدى النبي برأس ضخم وقال :

هذا رأس عدو الله أبي جهل

رسول الله — مسرورا — بالله الذى لا اله غيره ؟؟

عبد الله — نعم وأيم الله

سعد بن معاذ — فضلا من الله ونعمة ان ملكنا رأس الطاغوت

ثم واصل بن مسعود كلامه وقال :

ان بيني وبين أبي جهل ثأرا قديما فقد شج أذني يوما بحجر عند الكعبة لايماني بالرسول، فقلت لعل الله يجمع رغبتي فيه برغبة رسول الله. فاخذت اتصفح وجوه القتلى حتى وجدته بآخر رمق فعرفته ووضعت رجلي على عنقه، فقال لى لقد ارتقيت مرتقى صعبا ياروبيع الغنم، ولمن كانت الدبرة، فقلت لله ورسوله، بينما أنا مشغول برأسه احتزه من عنقه، ولكن سيفي لم يغن شيئا، فبصق في وجهي وقال خذ سيفي هذا

(١) لا يصل اليه أذى (٢) وقد قتل معوذ في هذه المعركة.

فخز به رأسى من عرشى (١) وعجل بى من هـذا العذاب ففعلت ذلك .
ولما لم أستطع حمله نفذت إلى اذنه بحبل ثم شحطته اليكم (٢)

فخر رسول الله ساجدا وقال الله أكبر الله أكبر صدق وعده، ونصر عبده. وهزم الأحزاب وحده. الحمد لله الذى اخزى فرعون هذه الأمة

ثم أمر بدفن القتلى فى حفرة واحدة . ودفن الشهداء فرادى

أبو بكر — وانت يابن عوف، مالك صامت واليوم مسرة وعيد

عبد الرحمن بن عوف — يعفو الله عن بلال بن رياح لقد استعدى الانصار على أمية بن خلف وولده بعد أن اسرتهما فقتلوهما على الرغم منى فذهبت أدراعى وفجعنى فى أسيرى

المجذر بن زياد — بل يعفو الله عنى أيضاً فقد عثرت بأبى البخترى أثناء القتال فقلت له دع النوم وانج بنفسك فان رسول الله قد نهى عن قتلك . فقال وزميلى جنادة بن مليحة ؟ قلت لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، وما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك ، فقال لا والله لأموتن معه لئلا تتحدث عنى نساء قريش انى تركت زميلى حرصا على الحيـاة . فدونك والسيف ، ثم أخـذ يرتجز وهو ينازلنى

لن يسلم ابن حرة اكيله حتى يموت أو يرى سبيله

عـكاشة — وما خطبك ياحبيب

قطع شقى بضربة سيف فرفع عنه ثيابه بسرعة ثم جاء رسول الله فضم بين أجزاء لحمه ومسح عليها فعادت كما كانت

على — وماذا بك ياهذا

رفاعة بن مالك — فقئت عينى بسهم المشركين

---

(١) عرق فى أصل الرقبة (٢) جررته

رسول الله — ما دعناه — إلى هاتها ثم بصق على موضعها واعادها مكانها فابصرت كما كانت

عكاشة — الله اكبر الله اكبر اشهد أنك رسول الله حقاوصدقا، ان القضيب (١) الذى اعطيتنيه قد استحال سيفا بتارا وقد قاتلت به زهاء يومى ولما يزل قوى الصفيحة

(١) قضيب من خطب

— ٤ —

يا أهل القليب .. هل وجدتم ماوعد
ربكم حقا ؟! فانى وجدت ماوعدنى ربى
حقا ، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم
كذبتمونى وصدقنى الناس
واخرجتمونى وآوانى الناس
وقاتلتمونى ونصرنى الناس محمد رسول الله .

هدأت المعركة وخيم السكون . وغاب كل عن مكانه يستعيد مشاهد القتال ويستعرض ماكان مستهدفا له . فتارة يقطب جبينه وتنكمش محاجره فزعا لحادثة ، وتارة أخرى تنبسط أساريره ويضىء محياه لموقف خالد ، وثالثة يطير بخياله إلى يثرب وماستلقاهم به ، ثم إلى مكة وماسيطغى عليها من أحزان ، فيشيع السرور فى جسمه ، ثم رابعة إلى ماكان يحدث لو أن النصر لم يكن فى صفوف المسلمين فيلتفت يمينا وشمالا طردا لهذه الاشباح المزعجة ، وفرارا من التصورات المخيفة تتوارد على ذهنه وتمرق شتى الازياء وتغاير الاوضاع . ولعله قد أفاقهم مرور رسول الله فى حرسه الكثيف ميمما شطر قريش فتوشحوا بأسلحتهم من جديد

وساروا خلفه كأن على رؤسهم الطير ، لا تسمع إلا وقع الخطي وحفيف الثياب . فمروا بقبور الشهداء . ثم وقفوا دونها هنيهة رهيبة اختلط فيها شعور الأسى على فراقهم بشعور الغبطة لسبقهم إلى دار الجزاء . وامتزج فيها الحنين إلى مثواهم بالرغبة فى الحياة لاتمام رسالتهم ، ثم تحركت الالسن بما تيسر من القرآن ، ثم تابعوا سيرهم فألفوا أبا حذيفة قائما على جثة أبيه عتبة بن ربيعة ممتقع الوجه حزين النفس ، فالتفت اليه رسول الله وقال ، يا أبا حذيفة لعلك دخلك من شأن ابيك شيء

ابو حذيفة — لا .. والله يانبى الله ماشككت فى أبى ولا فى مصرعه ولكنى كنت اعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا . فكنت أرجو ان يهديه ذلك إلى الاسلام . فلما رأيت ما أصابه . وذكرت ما جات عليه من الكفر بعد الذى كنت ارجو له ، أحزننى ذلك

رسول الله — خيرا ..

ثم اخذت الجثة والقيت فى القليب (١) مع بقية قتلى المشركين ، ثم رأوا عن بعد غير قليل ، طوائف الحداة ووفود النسور تحوم حول شيء تهبط عليها بسرعة وتصعد ، كأنها تحاول التقاءه فلا تستطيع . ورابهم ذلك فدنوا من موطن هبوطها . فاذا بها جثة لاعهد لهم بضخامتها وقد بدأت الروائح الكريهة تنبعث منها ، فأخذ بعضهم ينظر إلى بعض نظرات استفسار عمن عساه أن يكون صاحب هذه الجثة ، ثم تبين انها لامية ابن خلف فتساءل رسول الله

---

(١) حفرة دفنت فيها قتلى المشركين

لم — لم توار التراب ؟

مالك بن الدخشم — لقد انتفخ يارسول هذا المشرك فى درعه حتى ملأها قبل الاوان وكم حاولنا سحبه إلى القليب فيتزايل لحمه

عمر — اقروه فى مكانه واهيلوا عليه الحجارة والتراب

ثم وقف صلى الله عليه وسلم وقال

يا أهل القليب : هل وجدتم ماوعد ربكم حقا ! ؟ ياعتبة بن ربيعة ياشيبة بن ربيعة يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا ؟فانى وجدت ماوعدنى ربى حقا .. بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس وأخرجتمونى وآوانى الناس وقاتلتمونى ونصرنى الناس

عمر — أتنادى يارسول الله قوما جيفوا (١)

رسول الله — ما انتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لايستطيعون ان يجيبونى

* * *

القت (بثرب) بكل مافيها تستقبل الجيش الظافر رجالا وركبانا — على بعد أميال — يحملون الرايات البيضاء . ويلوحون بالسعف والاغصان كأنها فى تكاثفها حرجة متنقلة تنبعث من ثناياها سحائب البخور وأهازيج النصر ، وما التقى الجمعان حتى غلا مرجل الفرح وفاض دموعا وارتفعت الضوضاء حتى استحالت دويا راعدا ، وسبح الثرى فى الفضاء

---

(١) ماتوا وافتنوا

حتى صار سحابا كثيفا تبرق السيوف فى ظلمته كما تبرق النجوم فى الليل المظلم ، وخشى رسول الله مغبة الشعور بالنصر على الاسرى فقال

استوصوا بالاسارى خيرا

فجمعهم عمر وعلى وجعلهم كقطب الرحى بين المحاربين حتى لا ينفصل الاذى بهم من المستقبلين المتحمسين

وعند المنازل النبوية استعرض الاسرى رسول الله وقد شدت أيديهم إلى اعناقهم صفوفا كأنهم مجموعة من الدببة الراقصة تخضع لأوامر قائدها يرمون المسلمين بنظرات كالشرر ويقذفونهم بأنفاس كالحمم ثم رد رسول الله نظره بين عمه العباس وبين آسره كعب بن عمر وهو يضحك (١) ثم قال :

كيف اسرت العباس يا أبا اليسر

ابو اليسر — لقد أعانني الله عليه برجل مارأيته قبل ذلك ولا بعده

رسول الله — لقد أعانك عليه ملك كريم

ثم نظر رسول الله إلى عمه وقال

افد نفسك وابنى أخويك عقيل بن ابى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة ابن عمر ، فانك ذومال

العباس — كنت مسلما يارسول الله ولكن القوم استكرهونى على الخروج للقتال

رسول الله — الله أعلم باسلامك . ان يكن ماتذكر حقا ، فالله يجزيك به . أما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك

---

(١) لان العباس كان جسيما بينما (ابو اليسر) كعب بن عمر كان رجلا نحيلا

العباس — لى فى ذمتك عشرون أوقيـة من ذهب فاحسبها فى فدائى (١)

رسول الله ـ لا .. ذاك شىء اعطانيه الله عز وجل منك

العباس ـ آسفا ليس لى مال

رسول الله ـ وأين المال الذى وضعته بمـكة حيث خرجت عند أم الفضل بنت الحرث وقلت لها : ان اصبت فى سفرى هـذا فللفضل كذا وكذا ولعبد الله كذا ولقثم (٢) كذا وكذا ولعبيد الله كذا وكذا

العباس ـ شاهقا ـ والذى بعثك بالحق ماعلم هذا أحدغيرى وغيرها وانى لا أعلم انك رسول الله .ثم فدي نفسه وابن أخيه عقيلادون غيره

ثم التفت رسول الله إلى ابن عمه نوفل بن الحرث وقال له

أفد نفسك ياهذا

نوفل ـ مالى شىء افدى به نفسي

الرسول افد نفسك من مالك الذى بجدة

نوفل ـ اشهد أنك رسول الله . والله مامن أحد يعلم أن لى بجـدة مالا غير الله ثم فدى نفسه

---

(١) لم يكن رسول الله مدينا له بشيء وانما خرج العباس ومعه عشرون أوقية من ذهب ينفق منها على قريش فصودرت منه حين أسر فزعم انها تكون فى ذمـة النبى مادامت قد صودرت منه ولـكن رسول الله قال له (اما شيء اخرجته تستعين علينا به فلانتركه لك) وفى هذا نزلت آية (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسرى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم »

(٢) بضم فتح

ثم رجع عمر إلى الوراء قليلا ثم عاد وأمعن فى الصفوف ثم قال وهو يشير بأصبعه

هذا سهيل بن عمرو فى الاسرى يارسول الله .. ولطالما دلع لسانه عليك بين الناس خطيبا فانزع ثنيتيه السفليين حتى لايقوم إلى مثلها مرة أخرى

فصمت رسول الله هنيهة تردد فيها بصره بين عمر وسهيل ثم قال :

لا أمثل به فيمثل الله بى وان كنت نبيا وانه عسى أن يقوم مقاما لاتذمه

وتفقدت سودة بنت زمعة زوج النبى الاسارى (١) فالفت سهيلا بينهم فقالت له اعطيتم بايديكم ؟ الا متم كراما ؟

فقطع رسول الله حديثها قائلا

ياسودة .. اعلى الله وعلى رسوله تحرضين ؟

سودة — والذى بعثك بالحق ماملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد (٢) مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، أن قلت ذلك

ثم مال اسامة بن زيد على اذن عبادة بن الصامت وقال له :

اين عقبة بن معيط والنضر بن الحرث وقد تركتهم فى (بدر) بين الاغلال والاصفاد قبل ان يرسلنى رسول الله مع صاحبى زيد بن حارثه إلى أهل العاليه والسافلة ببشارة النصر

عبادة هامساً — أما النضر ابن الحارث فقد قتله على بن أبي طالب بأمر رسول الله فى «الصفراء» (٣)

---

(١) ولم يكن اذ ذاك قد نزل الحجاب

(٢) كنيه سهيل

(٣) وسبب قتله أنه كان ينال من القرآن ويذم رسول الله ويعذب اصحابه بمكة

وأما عقبة بن معيط . فقد أمر رسول الله بقتله (بعرق الظبية) (١) وانه حين سمع ذلك كى بين يدى النبى وقال ومن للصبية يارسول الله ؟ فقال له لهم النار ثم تقدم صوبه عاصم بن ثابت وعلاه بسيفه فقتله

اسامه ـ وأين ذهبت الاسلاب الكثيرة لا أرى إلا بعضها موزعا بين المحاربين

عباده ـ أما الاسلاب فقد اختلفنا فيها وساءت اخلاقنا ، فمن رأى بأن توزع على المحاربين وحدهم، ومن رأى بأن تعمم على جميع من شهدوا المعركة محاربين أو حراسا، فنزعها الله من بين ايدينا فجعل رسول الله يقسمها بين المسلمين بالسوية وقد تم ذلك فى سير (٢) ولدى عبدالله بن كعب امين النفل (٣) سهمك وسهم صاحبك زيد بن حارثة فاذهب اليه ان شئت وتسلمه

فاطرق اسامة برأسه استحياء وقال
مالهذا سألت .

ثم صمت وصمت محدثه معه واستغرقا فى تفكير لم يفقهما منه إلا صوت عمر عاليا يدعو الصحابة للتشاور فى مستقبل الاسرى وقد اسند رسول الله ظهره إلى إحدى قوائم المسجد يستمع إلى آراء أصحابه فقال ابو بكر :

---

(١) وذلك لانه وطىء عنق النبى وهو يصلي يوما ويصق عليه ، وفيه نزلت آية (ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا »

(٢) بفتحتين متتاليتين اسم قرية (٣) بتشديد فتح ـ الاسلاب

يارسول الله ، قومك واهلك استبقهم واستأنهم (١) وخذ منهم الفدية فيكون ما اخذناه منهم قوة ، وعسى الله ان يهديهم فيكونوا لنا عضدا

عمر — يارسول الله كذبوك واخرجوك فما عليك من ان تمكن من وهب بن عمير وعمر بن ابى سفيان فاضرب عنقهما وتمكن حمزة من من أخيه العباس فيضرب عنقه ، وتمكن عليا من اخيه عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن مصعب بن عمير من اخيه ابى عزيز بن عمير فيضرب عنقه حتى يعلم الناس ان ليس فى قلوبنا هوادة للكفار وهؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم

عبد الله بن رواحة — يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فادخلهم فيه ثم اضرمه عليهم نارا

رسول الله — ان الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون الين من اللبن . وان الله ليشدد قلوب رجال فيه . حتى تكون أشد من الحجارة . وان مثلك يا ابا بكر مثل ابراهيم قال من تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم . ومثل عيسى قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم . ومثلك ياعمر مثل نوح قال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا بل مثلك كمثل موسى قال ربنا اطمس على اموالهم واشدد قلوبهم فلايؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ثم قال صلى الله عليه وسلم

انتم اليوم عالة ، فلا يفلتن منهم احد الا بفداء او ضرب عنق

---

(١) أمهلهم

عبد الله بن مسعود — الا سهل بن بيضاء يارسول الله

فسكت رسول الله هنيهة سرح فيها نظره الى السماء ثم اسبل جفنه فاقتفع عبد الله بن مسعود لصمته واطرق برأسه مرتجفا كمن ينتظر حكم الاعدام عليه حتى سمع رسول الله يقول

— الا سهيل بن بيضاء

فرفع راسه وقد عادت الحياة الى وجهه وزفر مستشهدا مسرورا .

— ٥ —

ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى
يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا
والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم .
قرآن كريم

وكان النار عند الشعب بوى القرشيين على أبواب الطريق إلى يثرب متناثرين هنا وهناك ، زرافات ومثنى يرقبون الافق ويطالعون وجه الصحراء لعل حدسهم يصيب مكانه ، فيظفروا بقافلة قادمة أو بمبعوث من قريش يحدثهم عن أنبائها

وكلما شاهدوا ظل السحاب . أو اهتزازات السراب . أو تمايل النخيل والاشجار ، خالوها قوافل قادمة . فيحبسون من أنفاسهم ويربطون على قلوبهم . ويشيرون بأصابعهم جاحظي العيون فاغرى الافواه حتى إذا أخطأهم حدسهم . عادوا الى بعضهم مزمجرين متلاومين ساخطين .. وظلوا على هذه الحال حتى رأوا شبحا يتأرجح عن بعد فاختلفوا فيه هل هو حقيقة أم خيال . ولكن اليأس فى هذه المرة قد أبطأ سيره إلى نفوسهم . فجمدوا جميعا فى أماكنهم وشدت عيونهم بأهدابها صوب

الأفق . وكلما دنا القادم قوى الاعتقاد بحقيقته ، وارتفعت بقوته الدماء في الوجوه . وزادت دقات القلوب في الصدور وجف اللعاب في الحلاقيم وترددت الانفاس بسرعة لاهثة ، وكان أن صاح صفوان ابن أمية .

هذا والله الحيسمان بن عبد الله بن اياس ، أحد أبطالها وابن بجدتها أبو سفيان — ولكن سحنته لا تبشر بخير

صفوان بن أمية — مه ياهذا !! لعلها آثار السفر

كان القوم يقولون هذا وهم يرتضون نحوه حتى وقفوا دون ناقته ينظرون اليه بعيون حائرة بين الخوف والرجاء وهو في مكانه كالتمثال لا ينبس ببنت شفة فبادره صفوان قائلا

ماوراءك ؟؟

فأطرق برأسه لا يحير جوابا

فاحتد عليه أبو لهب قائلا

فبحت من طلعة .. تكلم ياهذا

فرفع رأسه قليلا وأخذ يفتح فمه كمن يفتحه لجرعة دواء مريرة ثم قال :

والله ما من شيء إلا ان هجموا علينا فنحناهم أكتافنا فأخذوا يأسرون فينا ويقتلون . ولقد قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف وزمعة وعقيل والحرث أبناء الاسود بن عبد يغوث وقد أسروا نحو السبعين وعلى رأسهم عقبة بن معيط والنضر ابن الحارث والعباس بن عبد المطلب وابو عزيز بن عمير وسهيل بن

عمر وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث

كان الحيسمان يقول هذا وقلوب القوم تتساقط من صدورهم فتخور لها نفوسهم على وقع الانباء كما تتساقط أوراق الخريف على وقع الرياح

فعادوا إلى مكة منكسى الرءوس تحت سحابة من الكآبة والحزن متداعى القوى متهافتي الاعصاب . وساقت أبا لهب قدماه من حيث لا يدرى إلى حجرة أم الفضل عند زمزم فجلس على عتبتها مغتما حزينا فسمع أبا رافع مولى العباس بن عبد المطلب يحدث عن هزيمة قريش فى بدر فما كان من أبى لهب إلا أن لطمه على وجهه فثار أبو رافع لذلك فحمله وضرب به الارض فقامت أم الفضل الى عمود من عمد الحجرة فأخذته وضربته به ضربة شجت رأسه وقالت

تستضعفه ان غاب عنه سيده

ابو لهب — تربت يداك!! فوالله إن سيده هذا الذى تقولين ، عند محمد فى الاغلال مع ابنى عمه أبى طالب والحرث

أم الفضل — إن عفو محمد وكرمه لا ينفدان ، فدعهم أنت وشأنهم ياعدو الله

وما هي الا سويعات حتى شاعت أنباء بدر فى مكة ، وتواترت نخلت شوارعها من المارة وخيم الحزن على ربوعها . وجاء الليل فلفها فى ثياب الحداد . لا يطل من كواها (١) نور ولا ينبعث منها صوت . وقد تسمع بكاء خافتا يرسله الجوى حارا داويا . ويمنعه الحياء ، قبل الاخذ بالثار

---

(١) جمع كوة وهي النافذة

ويحبسه الخوف من الشماتة ، ففى كل قلب جرح ومع كل زفرة مهجة وسعير .

وأذاب الحزن كبد الاسود بن زمعة بن عبد المطلب وذهب الحزن بنور عينيه على ولديه وابن ولده الذين قتلوا فى بدر وخاصم الكرى جفنه — منذ علم بذلك — حتى سمع فى جوف الليل نائحة تنتحب فدعا بغلام له وقال

أنظر ياغلام هل أحل النحيب وهل بكت قريش على قتلاها لعلى أبكى على أبى حكيمة (١) فان جوفى قد احترق من الكمد فخرج غلامه وعاد يقول

إنما تبكى على بعير لها أضلته فأنشد يقول

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكى علي بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بنى هصيص ... ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكى ان بكيت علي عقيل ... وبكى حارثا أسد الاسود
وبكيهم ولا تسمى جميعا ... فما لأبى حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا

* * *

وفوق بساط الارض الخضراء . وتحت شجيرات تعانقت فوق بئر عذبة تصفق أوراقها لعزف النسيم وتميد أغصانها لألحان البلابل . جلس

---

(١) كنية والده زمعة

أسامة بن زيد عند الاصيل مع صاحبه زيد بن حارثة وأخذ يشدو بقول الشاعر :

ألا ليت شعري هل أتى أهل مكة ... أبادتنا الكفار في ساعة العسر
قتلنا سراة القوم عند مجالنا ... فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر
قتلنا أبا جهل وعتبة قبله ... وشيبة يكبو لليدين وللنحر
قتلنا سودا ثم عتبة بعده ... وطعمة أيضا عند ثائرة الغتر
تركناهم للعاديات يذشنهم ... ويصلون ناراً بعد حامية القفر

ثم قال لصاحبه وهو يحاوره

أرأيت كيف أذل الله آناف قريش فأرسلت رسلها إلى رسول الله بالفداء رغم ما أنفقوا عليه من عدم تقديمه حتى لا يطمع الرسول في كثرته بل لقد حرموا البكاء على قتلاهم بمكة حتى يأخذوا بالثأر في ملحمة قادمة فقدموا في اليوم المطلب السهمي في فداء أبيه أبي وداعة باربعة آلاف درهم ووافى مكرز بن حفص في فداء سهيل ابن عمرو ووضع رجله مكانه في الغل حتى ينطلق سهيل في إحضار الفداء وأرسلت أم مصعب بن عمرو بفداء ابنها أبي عزيز بن عمير ثم أرسلت زينب بنت رسول الله قلادتها تفدي بها زوجها أبا العاص بن الربيع فرق لها رسول الله ولكنه لم يطلق سراحه الا برضاء أصحابه الا لي ردوا لها قلادتها على أن يسرح زينب الى يثرب (١) ومن رسول الله بغير فداء على أبي العاص ووهب بن عمير وعمر الجمحي الشاعر المعروف بعد أن عاهد

---

(١) وكان زوجها يحبها ويحسن معاملتها ويأبى أن تفارقه أو يفارقها . وقد أثر هذا الصنيع في نفسه فارسلها الى أبيها مكرمة . ثم أسلم بعد ذلك

النبي على ألا يقول فى الاسلام هجرا (١) ثم وافى عمير بن وهب احد شياطينهم وما أدخلوه على رسول الله حتى أخبره النبي بمؤامرته التى بيتها مع صفوان لقتله (٢) فشهق عمير شهقة تذاعت أضلاعه لها أو كادت وقال أشهد انك رسول الله وقد كنا نكذبك بما كنت تأتينا من خبر السماء ، وهذا وحدك لم يحضره الا أنا وصفوان وما أتاك بأمرنا الا وحي السماء فالحمد لله الذى هدانى للاسلام فقال رسول الله فقهوا أخاكم فى دينه واقرئوه وعلموه القرآن واطلقوا له أسيره ثم وافى رهط من بنى عوف رجاء فى أطلاق سراح عمرو ابن سفيان ، لأن أبا سفيان قد حبس سعد ابن النعمان ومعه عمه (٣) حتى يطلق سراح ولده

زيد بن حارثة — نعم لقد أذل الله آنافهم ودحاها فى الرغام . . ولكنى رأيت اليوم رسول الله وأبا بكر يبكيان بكاء مراً وجاء عمر فقال ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فان وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة (وأشار إلى شجرة قريبة)

ولكنى لم أفهم كل الذى أراد رسول الله

---

(١) ولكنه نقض عهده وعاد مع المقاتلين فى (أحد) فأسر وقتل وحمل رأسه إلى المدينة

(٢) وكان قد اتفق معه على أن يقتل رسول الله مقابل التنازل عن دين لصفوان فى ذمته ، فيخلى له ولده وهب بن عمير احد الاسرى ويستريح من الدين

(٣) وكان شيخا مسلما قد جاء الى مكة معتمرا لا يخشى الذى حدث له

اسامة ـ لقد عاتب الله نبيه فى قبول الفداء عن الاسرى ونزل عليه جبريل يقول له عن ربه (ما كان لنبى ان يكون له اسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) وما أتمها جبريل حتى همى رسول الله وصاحبه بالبكاء ثم قال لو نزل عذاب من السماء لم ينج منه الا ابن الخطاب وسعد بن معاذ لقوله يا نبى الله كان الاثخان فى القتل احب إلى من استبقاء الرجال

مصارع السفهاء

سر وصفي

على أثر هزيمة قريش فى بدر احتجزت كل ماربحته من القافلة التى نجت من أيدى المسلمين لتعد به حملة من الدعاية الخبيثة ضد الدعوة الاسلامية تمهيدا لحملة حربية تسترد بها هيبتها أمام العرب وتنتقصف بها من محمد وأصحابه فاستقبل المسلمون حملتهم الأولى بما هى أهله من قطع السنة السفهاء المأجورين وابادتهم وفيما يلى وصف لمصارع هؤلاء السفهاء .

— ١ —

هؤلاء اشراف العرب وملوك
الناس والله لئن كان محمد قد اصابهم،
لبطن الارض خير من ظهرها .
كعب بن الاشراف

الليل ساجى الزفرات ، عاطر النفحات ، فضى الاهاب مفوف الجلباب لاتسمع فيه إلا حفيف الثياب . ولاترى فى وضاءته إلا رهطا من البشر يسير صوب ضاحيـة (بقيع الغر) فى تؤدة واناة ، مطأطئى الرؤوس، كأن ماتحمل رؤوسهم ويشغلها قد أثقلها ، يتقدمهم رجل ربعة (١) وضىء ، يسبح ذيل عباءته فى الفضاء فتخالها أجنحة ملاك، ويرسل ذؤابة

(١) متوسط القامة

عمامته بين كتفيه فتظنها سحابة صغيرة هبطت من السماء، يباعد الحب والاجلال بينه وبين صحابته صامتـــا . وتدنى المشورة بينهم وبينه هامساً . وقد ظلوا على هذه الحال ، حتى لمحوا أنوار الضاحية نقطا باهتة. كأنها عيون معتكره فى محاجر سوداء . فوقف دونهـــا ووقفوا ، ثم التفت اليهم وقال :

انطلقوا على اسم الله

ثم شخص إلى السماء فى عودته إلى بيته وقال :

اللهم أعنهم . .

فردد الفضاء دعاء الرسول صلى الله عليـه وسلم . وسمع الصحابة ذلك فأمنوا على دعائه ، وعيونهم شاخصة نحو الضاحية التى أصبحوا منها على بعد نحو نصف ميل

ثم دنا محمد بن مسلمة . من وجه عبـاد بن بشر وقال له فى صوت خافت .

أهذا هو حصن كعب بن الاشرف

عباد — ان حصنه خلف الضاحيـة ولعل نيرانه تلك التى تداورنا من خلال السعف (٢)

الحرث بن أوس — لا علا كعبه ، ولاشرفت بمثله أرومته (٣) ولاارجئت عنه منيته . لقد ضاق هذا الرجل ذرعا بما كتب للمسلمين من النصر . ولم يطق صبراً على ضغينته ، فقال على ملأ حين علم بقتل

---

(٢) جريد النخيل

(٣) أصله وأهله

زعماء قريش (هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله ان كان محمد أصابهم لبطن الأرض خير من ظهرها) .

فنرجو أن نبلغه اربته . وننزله إلى بطن الأرض الذى أراد

ابو عبس — ليته اكتفى بما قال يبرد به حفيظته ! ! ولكنه رحل إلى مكة واخذ يغشى محافلها ونواديها ومنازل القتلى فى بدر ، محرضاً على الاخذ بالثأر من محمد وأصحابه ، وكان آخر ما انشد فى ذلك قوله :

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا ان الملوك تصرع
كم قد اصيب به من ابيض ماجد ... ذى بهجة تأوى اليه الضيع
طلق اليدين اذا الكواكب اخلفت ... حمال اثقال يسود ويربع

• • • • •

نبئت ان بنى المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل ابى الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ... ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت ان الحرث بن هشامهم ... فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور (يثرب) بالجموع وانما ... يحمى على الحسب الكريم الاروع

ابو نائله — غضوا من أصواتكم لئلا يكشف أمرنا أحد من هذه الضاحية

محمد بن مسلمة — ويحك وأى عين لم تنم إلى هذه الساعة ياأخاه ؟ !

عباد بن بشر — ويالليته اكتفى بذلك بل عاد إلى (يثرب) وراح يؤذى اسماع الناس بسفاهاته ويتشبب بنساء المسلمين تلويثا لسيرتهن

محمد بن مسلمة — محتداً — يالهول المصاب ! الهذا الحد ولغ هذا الرجل فى أعراضنا ؟ !

عباد — انه لم يدع ممن يعرف واحدة حتى انشد فيها وتشبب واطال . وكانت آخر غزلياته ماقاله فى أم الفضل بنت الحرث وكان منها قوله :

اراحل أنت لم تحلل بمنقبة ... وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء وادعة لو تعصر انعصرت ... من ذى القوارير والحناء والكتم
يرتج مابين كفيها ومرفقها ... إذا تأدت قياما ثم لم تقم
اشباه أم حكيم إذ تواصلنا ... والحبل منها متين غير منجذم
احدى بنى عامر جن الفؤاد بها ... ولو تشاء شفت (كعبا) من السقم
فرع النساء وفرع القوم والدها ... أهل المحلة والايفاء بالرحم
لم أر شمسا بليل قبلها طلعت ... حتى تجلت لنا فى ليلة الظلم

أصوات — الويل للهالك بن الهالك

عباد — لعل حيلتنا تتم ليلتى مصرعه الليلة فنبر بما تعهدنا به ، ونحظى برضاء رسول الله

وكان السائر بالقرب من الحصن فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل يشم نسمات المسك تضوع المكان ، ويسمع حديث غزل ودعابة تمازجها قبلات هامسة : وتتخللها فترات حارة . لاتختفى حتى تعود ، ولاتعود حتى تختفى ، بين دبيب المنى ، ونشوة السعادة ، واحلام اليقظة بين زوجين أغلب الظن أنهما حديثا عهد بعرس . فقطع عليهما حبل هنائهما صوت ينادي

يابن الاشرف هلم (١)

فارتعدت العروس لهذه المفاجأة . وأحست فى نبرات الداعى نذيراً بخطر قادم . وعرف كعب بن الاشرف صوت مناديه وصديقه الحبيب (أبو نائله) وانه ماأتى فى مثل هذه الساعة إلا لخطب ، فهزته اريحيته بسرعة خاطفة ورد على صاحبه قائلا :

جادك الغيث (٢)

العروس — فازعة — لاجادت بالغيث سماؤه

وهم زوجها بالقيام فوقفت دونه ممانعة مضطربة وقالت :

— انك امرؤ محارب ، وان صاحب الحرب لايزايل منزله فى مثل هذه الساعة

كعب — انه أبو نائلة . وانه لو وجدنى نائما ماأيقظنى . وانه لامحالة فى حالة إلى عونى والا لما جاء فى مثل هذه الساعة

العروس — اني لاسمع من صوته شرا واحس منه بقشعريرة

كعب — ان فراقنا هنيهة من ليل لا يعد شراً ، على ان الفتى إذا دعى ولو لطعنة اجاب ، فتنحت عن طريقه واسلمت وجهها لراحتيها واجهشت بالبكاء حتى سمع نشيجها خارج الحصن

وماالتقى وجهاهما حتى ابتدر أبو نائلة صاحبه قائلا

وجهك والقمر يابن الاشرف افمن لى بعروس بضة أستعيد بين

---

(١) تعال

(٢) كلمة تقولها العرب عندما تلبى رغبة الملهوف

اعطافها شرخ الشباب . اتذكر الذى قال

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي

كعب — وكيف أنسى شاعر بنى عبس بعد أن قال فى محبوبته هذا التشبيب الجميل

فوددت تقبيل السيوف لانها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

فتضاحك الصاحبان ثم قال ابو نائلة

ويحك يابن الاشرف . انى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم على

كعب — تحدث فقد صادف سرك مكانه

أبو نائلة — لقد كان قدوم هذا الرجل (١) بلاءا . . . عادتنا العرب . ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت السبل ، وأصبحنا وقد جهدنا وجهد عيالنا

كعب — لقد صار الأمر إلى ما كنت أقول وأحذر . واخيف منه وانذر

ابو نائلة — ألك أن نمشى صوب شعب (العجوز) فنتحدث طرفا من الليل فى ضوء القمر لشأن ما

كعب — لاتثريب علينا ولاشية، فشأنى شأنك وأمرى أمرك

ابو نائلة — ان لى اصدقاء قد سبقوا إلى شعب.(العجوز) وقد أردت أن تبيعنا واياهم طعاما . ونرهنك ونوثق لك فى حقك ونحسن فى ذلك

---

٢ يقصد رسول الله متظاهرا بكراهيته

كعب — اترهنونني نساءكم ؟!

ابو نائلة — وكيف نرهنك نساءنا وأنت أشب فتى فى قريش واعطرهم !!

كعب — ضاحكا — اترهنونني ابناءكم

ابو نائلة — لقد أردت ان تفضحنا فى ذلك . وان معي اصحابا على مثل رأيي . وانهم لينتظرون مقدمك ليرهنوا سيوفهم ودروعهم وزردهم ، وهي اعز مايملك الفتي فى قومه

كعب — إذا كان الامر كذلك فهي صفقة غير خاسرة

ثم جذب ابو نائلة وجبة طويلة من الهواء فى عمق ثم ارسلها وهو يقول :

مارأيت كالليلة طيبا اعطر قط فاعلك مصدره

ثم وضع يده على فود كعب (١) ورفعها إلى أنفه وجذب زفرة طويلة أخرى وقال

— نعم . . انه من فودك

ثم عاد فوضع يده على مؤخرة رأسه ثم رفعها إلى أنفه وجذبها بقوة وقال

— ان بصيص المسك يطل من حول راسك يابن الاشرف

ثم أعادها للمرة الثالثة . وكانا قد وصلا إلى المكان الذى كمن فيه الصحابة خلف أكمة هناك فى انتظار الفريسة

---

(١) مايلى الصدغ من الرأس

ومارأى ابو نائلة سيوفهم تلمع فى ايديهم وانهم منه على مقربة ، حتى راح يتظاهر بتضميخ يده بالمسك من شعره مداعبا له ، ثم قبض على عنقه بقوة وهتف باصحابه وقال

— اضربوا عدو الله

وما هي إلا لحظات حتى كانت السيوف تختلف صاعدة هابطة فوق « كعب »

* * *

رسول الله يؤدى صلاة الفجر فى محرابه والدنيا حوله خاشعة لخشوعه . صاغية لترتيله ، واجفة لوجيبه . وخلفه هؤلاء الأبطال الخمسة الذين تآمروا على السفيه كعب بن الاشرف قد انستهم حلاوة الترتيل متاعب السفر ، وأضفى جماله شفاء على جريحهم فنسى آلامه

ثم اقرأوا رسول الله السلام فأقبل عليهم هادئا يتلمس فى وجوههم مايبطنون من انباء ، فابتدره محمد بن مسلمة قائلا

هنيئا للاسلام بقتل كعب بن الاشرف يارسول الله ، فرفع رسول الله وجهه إلى السماء شاكراً

ثم قال ابن مسلمة

كادت سيوفنا لاتغنى شيئا فى عدو الله بعد أن هزتنا صيحته الراعدة حين هويناعليه بها فخفنا نجدة قومه له — لولا أغمدت سيفى فوق امعائه

وتحاملت عليه به . حتى وصل إلى ماتحت عاتقه فتراخت يده ، وفترت حركته ، وفارق الحياة ، ولم يعكر علينا جمال هذا النصر إلا اصابة الحرث في رأسه وقدمه بايدينا ، لسرعة اختلاط الاسياف على كعب ، فبسط راحته صلى الله عليه وسلم ومر بها على فمه ثم مر بها بعد ذلك على موضع الجراح من الحرث فعاد أقوى مايكون صحة وسلامة

— ٢ —

هذا قاتله . . انى لأرى فيه
اثر العظام .
محمد رسول الله

ســـاروا وكأنهم كانوا يلاحقون الغزالة وهي تسرع متعثرة فى اذيال الفرار، حتى استوقفهم الظلام فى حراسة النجوم . واحاطتهم أطياف الوحشة من كل جانب . فجلسوا يدورون بعيونهم فى رقعة السماء بحثا عن مطالع القمر ويواصلون تحت ضوئه بقية المرحلة تحقيقا للمهمة الخطيرة التى أخذوها على أنفسهم ، وتعهدوا بها أمام رسول الله .

وهبت نسمات الليل ندية ساجية فتلقفتها الخياشيم ناهمة ، وهفت لها النفوس هائمة، واستقبلتها العيون حالمـــة . فغالب الكرى والعناء بعض الجفون . فراحوا يتمايلون تمايل الاغصان فى مهب الرياح الهادئة حتى ايقظهم صوت أميرهم ينادى :

— هلم أيها القوم فقد فاض الوادى بنور القمر . . .

فتمطى مسعود بن سنان وتثاءب . ثم فتح عينيه على قرصة شـهير ماثلة ازاء فمه على يد عبد الله بن انيس . فغـاب نصفها بين ماضغيه ،

ولما يزل نصفها الاخر بين شفتية ، ينتظر دوره ، فتضاحك الصحاب ومال بعضهم على بعض من شدة السرور ، ثم وقف الخزاعي بن أسود ومرح عينيه اللامعتين فى الفضاء المحيط به ، ثم نظر صوب الحجاز وقال :

— ألم نواقع بعد « خيبر » ؟ ؟

عبد الله بن عتيك — اننا على مرمي النيال منها . ولو كنت فى مكان الحراسة قبل أن يطل علينا وجه القمر ، لرأيت أنوار الحصن الذى نقصد اليه عيونا دقيقة معتكرة .

الخزاعى — فرحا — أهكذا دنت سيوفنا من رأس أبى رافع شيخ اليهود ؟

عبد الله — قد دنت والله وحان قطعها .

وكنت لا تسمع فى هدأة الليل إلا وقع الاقدام الوئيدة على الرمال تغيب فى فحيحها همسات المتآمرين كلما دنوا من نخيل (خيبر)

واسترعت انتباههم على حين غرة ، دقات منتظمة تتابع أحيانا سريعة فى ذيل الرياح القوية . وتتباطأ أحيانا أخرى مع بطء الرياح وهدوئها ، فرفعوا أبصارهم صوبها فاذا بها العجلة الهوائية المعروفة عند الروم باستخراج الماء والتهوية ، فوق بناء شامخ يحرسه جيش من النخيل المتكاثف ، فعرفوا انه حصن ابى رافع اليهودى ، فنظر بعضهم إلى بعض نظرة تنادى بالاستعداد .

ثم سمعوا على غرة منهم صريرا قويا ، فالتصقوا بالنخيل فى سرعة

خاطفة حتى لا يراهم أحد . وإذا بحارس الياب يتقدم بمصباح فى يده أمام شيخ مقوس الظهر طويل اللحية ، تحف به جماعة عليهم ثياب معصفرة أكبر الظن أنه كبير أحبارهم فى حاشيته وتلاميذه ، ثم جاء حارس آخر يسعى أمام رجل فضفاض الثياب . رجراج الجلباب ، وضىء الوجه ، لامع العينين ، مرسل الشعر ، كأنه مرآة مصقولة فى أطار ذهبي ، فضغط ابن عتيك على كتف صاحبه عبد الله بن انيس ، فالتفت اليه فأشار له باصبعه صوب الحارس وسيده ثم همس فى أذنه وقال .

هذا هو صاحبنا !

فأومأ ابن أنيس برأسه ايماءة فهم منها أن هذا هو (أبو رافع) ضحية هذا المساء ، وما اختفى ظل ابى رافع حتى سارع عبد الله بن انيس إلى داخل الحصن يقود صاحبه من يده ، واختفيا بمناخ الأبل وكلما تثاقلت الساعات وتباطأ الزمن ، وأمضهم الانتظار ، مد أحدهم يده فى الظلام يضغط بها على صاحبه يستنهضه إلى الصعود لاقتناص الفريسة فيسيران فى بطء وحذر ، يتحسسان الطريق ويتلمسان المنافذ ، حتى إذا رأوا أنوار المصباح تسعى أمام حامله عن بعد وسمعوا وقع خطوات الحراس لا تهدأ لها حركة — عادوا أدراجهم فى سرعة القطا وخفته . فيتلاومان بالاشارات ، ويتعاتبان باللكزات ، ثم يلوذان بالصمت جامدين عن الحركة محتبسى الأنفاس .

ثم سمعا حديثا قائما بين الحارس وآخر تمازجه خطوات متقطعة غير منتظمة لا تأخذ فى سيرها طريقا معتدلا كما هي عادة الحارس أكثر الليل وهو يودع سمار سيده وجلسائه ، وانما تتلوى وتتعرج وتدور

حول نفسها في أكثر من مكان ، فعلم الصاحبان أن المجلس قد خلا من رواده ، وأن دور التفتيش للتأكد من خلو الحصن من الكائدين قد جاء ، فقذف أحدهما صاحبه ببرذعة حمار ليختبىء تحتها ، واحتفظ لنفسه بولية (١) من ولايا الأبل ، وجاء دور المناخ فى التفتيش سهلا سريعا وخرج الحارس القصير ومعه صاحبه إلي الباب العام يغلقانه ويؤكدان رتاجه ، فانتهزها ابن انيس فرصـــة ، وأطل عليهما من كوة المناخ وعرف أين علقت المفاتيح .

* * *

طنين كأنه حلم ، ثم نما وتضخم حتى صار صدى قويا أطار الكرى من رأس أبى رافع اليهودى ، فاستيقظ شـــعوره قليلا وراح يتسمع ما أيقظه ، ثم غالبه النوم بسرعة فعاد القرع كما كان ، وعاد أبو رافع إلى يقظته فرفع رأسه قليلا فسمع القرع وجلس يمسح عينيه كأنه يزيل منها آثار النوم وبقاياه ، ثم استيقظت زوجته وقالت من باب .

صوت — افتح يا أبا رافع

الزوجة — جازعة — انه والله صوت ابن عتيك .

أبو رافع لزوجته — ثـكلتك أمك . عبـد الله بن عتيك بيثرب — أين هو منا فى هذه الساعة ؟

الزوجة — أنى لأحس بزهومة (٢) شر قادمة .

---

(١) الولية المعروفة عند العامة بعدة الجمل وجمعها ولايا

(٢) حرارة

أبو رافع — افتحي: فان الكريم لايرد عن بابه فى مثل هذه الساعة
فقامت صوب الباب تقدم رجلا مرة اذعانا لرغبة زوجها. وتؤخرها أخرى تحت تأثير ماوقر فى نفسها من فزع.

وما التقى وجهها في وجه الطارق حتى صاحت.

— وازوجاه أنه ابن عتيك..

ولم تكد تتمها حتى هجم عليها ابن انيس ووضع يده على فمها بينما انقض عبد الله بن عتيك على أبى رافع بسيفه. وكلما حاولت أن ترفع يده عن فمها لتستغيث، رفع سيفه عليها ليقتلها، ولكنه مالبث أن تذكر وصية النبي له في أن لايقتل امرأة ولا طفلا.

ولكنها مافتئت تدافع عن نفسها وتصاول خصمها في قوة وعناد وقد أثار ثائرتها رؤية السيف لامعا فى الظلام يعلو ويهبط فوق زوجها فيتناثر دمه هنا وهناك. وخصمها مافتىء بدوره يجالد نفسه ويروضها على الاحتمال والاصطبار حتى لايشتد غضبه عليها فيقتلها، ويخالف ذلك وصية رسول الله، وما أنهكها التعب وتمشى فيها الاعياء. حتى كان قد عاد ابن عتيك فهمس فى أذنه.

— تقدم فذفف (١) على الرجل قبل فوات الوقت.

فدخل ابن انيس فألفاه سابحا في دمه فوضع ظبية السيف في بطنه وتحامل عليه حتي نفذت من ظهره، وخرج مسرعا يقول لصاحبه.

النجاء.. النجاء.

---

(١) أجهز.

ثم تقدم يفتح الابواب التى كان قد أغلقها خلفه وعدا نحو أصحابه ولكنه لم يكد يصل إلى مكمنهم حتى سمع صوت ابن عتيك يقول

وارجلاه . . . وارجلاه . .

فسارع القوم إلى مكانه فالفوه قد ضل طريق الخروج فهوى من عل، فكسرت ساقه، وما احتملوه حتى سمعوا صوتا يصيح .

وابيتاه . . . . وازوجاه . .

فساروعوا به إلى أول كهف وضمدوا رجله بعمامته، حتى لا ينزف دمه

وما هي إلا ساعات حتى كانت الآكام والافنية الواقعة حول خيبر قد غشيتها أضواء المصابيح الكثيرة، تمشى بين يدى اليهود الذين هرعوا على الصياح باحثين عن قتلة أبي رافع سريهم وسيدهم، كالجراد المنتشر يعلو وجوههم الفزع والوجوم . بينما تطل عيون المتآمرين من أحد الكهوف العالية هناك . وكلما شاموا (٢) نورا يتجه نحوهم، علت دقات قلوبهم وجفت حلاقيمهم وسارعت أنفاسهم، ولكن برد الاطمئنان وهدوء الايمان لا يلبث أن يعاودهم فتهدأ قلوبهم وتثلج صدورهم فينتظرون المقدور فى سكينة وسلام

ثم تذكر ابن انيس فجأة، أنه نسى قوسه على درج الحصن ساعة أن ذهب لاغاثة ابن عتيك، فغامر مأخرقوى وأخذ طريقه اليه فألفى القوم يسأل بعضهم بعضا فى الطريق.

— من طعن أبو رافع ؟ من طعن أبو رافع ؟ وكأنها كلمة الوحى

---

(٢) رأوا

نزلت على بنى اسرائيل، أو ترنيمة يرددونها عند حلول المصائب. فكان ابن انيس كلما لقى فردا أو جماعة بادرهم

— من طعن أبو رافع ؟ من طعن أبو رافع ؟

وظل كذلك حتى دخل الحصن واحتمل قومه والناس فى هرج ومرج ونزول وصعود .

يئست اليهود من البحث عن القتلة وعادوا أدراجهم فاحتمل الصحابة جريحهم وعادوا به صوب يثرب .

وقبل انبلاج الفجر حمل الأثير إلى آذانهم صوت الناعى يقول :

انعى أبا رافع .. أنعي أبا رافع .. رباح أهل الحجاز .

فشهقوا جميعا وكأنما قد استفاقوا من غشية ثم رددوا فى صوت واحد .

— حمداً لله .

ثم قال ابن عتيك .

— والله ما كان خوفى أن يظفروا بنا بقدر خوفى على أن لا يموت هذا الكلب الجشع، الذى طالما اساء الى رسول الله ، ومد يده الاذى إلى صحابته ، وألب الأحزاب على المسلمين ، وأثار قريشا لحربهم .. وكم كانت الحياة عزيزة في عينيه ، فطالما دافع عن نفسه حين هجمت عليه بسيفى واستمات فى الدفاع، وحال بينه وبين السيف بالوسائد يضع بعضها فوق بعض .

ابن أنيس — الآن قد أدينا واجبنا وأرحنا ضمائرنا حتى لا يتأخر

الاوس بقتلهم كعب بن الاشرف ، ولا يذهبوا بها فضلا علينا عند رسول الله ابدا .

ابو قتادة — نعم لتهنأ الخزرج بما فعلنا ولتقر بنا عينا .

* * *

رسول الله فى المسجد واصحابه حوله كالهالة حول القمر يأمر وينهى ، ويفسر ويشرح ، وقلبه الحنون الفياض مشغول بالابطال الخمسة الذين ذهبوا لاغتيال ابى رافع اليهودى . فكان يغطي انشغاله بهم بابتسامته المشرقة ، ويستر حنينه اليهم بمداعبة أبناء الصحابة . ويسرى عن نفسه بالحديث والدراسة . وبينما هو كذلك وإذا بالصناديد الاربعة يدخلون المسجد ، وبين ايديهم عبد الله ابن عتيك يئن ويتأوه وعلي شفاههم ابتسامة النصر يمازجها شىء من الحزن على ما أصاب صاحبهم فأفسح لهم صلى الله عليه وسلم فى مجلسه ورحب ، بمقدمهم ثم قام فعاون فى وضع الجريح على الارض ثم كشف عن ساقه وابتسم . ثم وضع يده على فمه الشريف ، وتلا كلمات ثم مر بها على موضع الكسر فجبرها الله وعادت كما كانت ، وانتصب أبو عتيك واقفا كأن لم يشك بها من قبل .

ثم راحوا يقصون عليه قصتهم ذهابا وايابا ، ثم اختلفوا حول القاتل لأبى رافع فادعاها كل من عبد الله بن عتيك وعبد الله بن أنيس .

فقال لهم الرسول : — هاتوا اسيافكم

فجاءوا بها . فنظر اليها صلى الله عليه وسلم وقلبها ثم تفقدها مرة أخرى ، ثم قدم لعبد الله بن عتيك سيفه ثم رفع سيف ابن أنيس وقال :

هذا قاتله انى لارى فيه أثر الطعام .

— ٣ —

يامعشر يهود ، احذروا من
الله مثل ما نزل بقريش من
النقمة ، وكفوا عن أذى المسلمين
واحفظوا عهد الموادعة ، أو ينزل
الله بكم مانزل بهم .
محمد رسول الله

الناس تتداعى من كل ناحية صوب جثة يهودى تنطف من جراحه دماء غزيرة ، واليهود ممسكون بمسلم يدعونه (١) تارة بأيديهم ، وأخرى بمطارق الحلى ، وثالثة بسيوفهم ، حتى تراخت أعصابه وتهافتت قواه ، وهوى إلى الأرض مضرجا بدمه ، يضربه الأطفال بأيديهم ، ثم لايسعفهم ذلك فيركلونه بأرجلهم الصغيرة ، ثم يشخصون إلى آبائهم يستقبلون منهم بسمة الارتياح والرضا ، ثم يعودون إلى الضرب والركل وتمزيق ثياب المحتضر ، وفى نهاية الدرب وقفت امرأة قبالة حانوت من حوانيت الحلى تصيح بأعلى صوتها .. يالله المسلمين .. بينما أخذ صاحب الحانوت يتوسل اليها أن تكف عن الصياح فلاتكف ، فينظر عن يمينه

(١) يفتح فضم فتشديد أى يضربونه .

وشماله فى سرعة، ثم يدخل إلى حانوته يجمع ذهبه وحليه فى حرزها استعدادا لاغلاق حانوته قبل أن يجتمع الناس ،وهو من شدة الرعشة لايكاد يحسن شيئا مما يريد أن يصنع . وطارت أنباؤها إلى احياء يثرب ونواديها ، فزحف المسلمون تلمع السيوف فى أيديهم فرادى ومثنى ، وتسابق اليهود إلى مكان الحادث الفاجع زرافات ووحدانا . ثم وقف الجمعان إزاء بعضهما فى معسكرين ملتهبين ولما تزل صفوفهما تستقبل وافدين جددا من الفريقين ،يتقد الشرر من عيونهم . ويتطاير الموت من سيوفهم ،لولا مسارعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكان الحادث فى سوق الذهب والحلى ، ووقوفه حائلا بين الجمعين أن يلتقيا فى حرب ضروس لم يأخذ لها المسلمون كل الأهبة والاستعداد ، ألقى رسول الله على الجمعين نظرة فاحصة ،ثم أطرق طويلا يوازن بين القوتين ويستعرض الموقف من جميع نواحيه ، ليرى رأيه فى حربهم أو مهادنتهم حتى يستجمع المسلمون قوتهم لقتالهم فى ميدان يروا فيه غصن النصر أدنى إلى أيديهم من ذلك ، ثم عاد صلى الله عليه وسلم ورفع رأسه وشخص إلى اليهود وقال :

يامعشر يهود احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة وكفوا عن أذى المسلمين ،واحفظوا عهد الموادعة،أو ينزل الله بكم مانزل بهم فهاج اليهود وماجوا ، ورفعوا سيوفهم يلوحون بها فى الفضاء وسادت الجلبة والضوضاء .

ثم شوهد عبد الله بن كعب يغالب صفوف اخوانه اليهود ويعاركها

كأنه سباح يصارع الامواج مصارعة في خضم هائج ، حتى وقف أمام رسول الله وهو يلهث من أثر الانفعالات التى تجيش بنفسه ، والاعياء الذى أصابه — وقال :

لا يغرنك يامحمد أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب . فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربنا لتعلمن أنا نحن الناس .

فخاص اليهود حيصة الفرح ، وعادوا يتوعدون باشاراتهم ويلوحون باسيافهم . ويكيدون بغمزات لحاظهم ، ورفع حواجبهم ، واتساع محاجرهم واستطالتهم وتقاصرهم ، وإرسال النكات سخرية واستهزاءا .

فأمر رسول الله المسلمين بالانصراف فاشتدت الجلبة وزادت الضوضاء والسخرية وإن لم تتجاوز مكانها رعبا من المسلمين وخوفا منهم .

ثم استدعى كبار الصحابة إلى جلسة خاصة للنظر فى الموقف ، وما يمكن أن يتمخض عنه من تطورات ، ثم أفضى إلى كل منهم بمهمته التى أسندت اليه ، واسترعى النشاط وشدة الحركة نظر اعرابى واقع يثرب من الضواحى ، فاستوقف ناقته بالقرب من المنازل النبوية وأخذ ينظر الى الصحابة منصرفين من لدن الرسول فى حدة وحزم وسرعة ، فأخذ الاعرابي يستقبل هذا بنظرة ويشيع ذاك بأخرى ، ويتابع ثالثا بثالثة ويتأمل رابعا برابعة ، عساه ان يصل إلى تفسير لهذا كله فلم يظفر بشىء . ألحت عليه غريزة الاستطلاع واشتدت . حتى لم يبق مجال فى صدره للصبر ، فاعترض بناقته طريق عبادة بن الصامت يسائله .

ماسر هذا الفزع يستولى على الناس ؟؟ أكرت قريش على « يثرب » تأخذ بثأرها في بدر ؟

عبادة — الأمر أهون من ذلك . انها امرأة من العرب قدمت بحلى لها لتبيعها فى سوق بنى قينقاع فجلست إلى يهودى بها . فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهى تابى عليهم ذلك ، فجاء يهودى من خلفها وعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها بشوكة فى الستر ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا منها فصاحت يالمسلمين فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم بالمسلمين على اليهود ، فسارعوا من كل جانب وكادت تقع الواقعة بينهم وبين اليهود لولا حزم رسول الله .

ثم رفع (عبادة) يده يحجب عن عينه أشعة الشمس ليرى محدثه الجامد فى مكانه . فالفاه تمثالا فاغر الفم . جاحظ العين ، متجعد الجبهة كأنه أدرك ما وراء ذلك ، وأنه حادث لن يمر قبل أن يحتاج في طريقه الأخضر واليابس ، فاستحث ناقته شارد الذهن مأخوذ اللب ، وسار إلى حيث شاءت أو شاءت ناقته ، وأبو عبادة ينظر فى عجب الى هذا الذى غادره قبل أن يسمع منه شيئا أو يقرئه سلاما .

* * *

رفعت الشمس نقابها على رماح وقسي ورايات وبنود ، وخوذات وزرود « ١ » ومشاة وركوب ، يرسمون دائرة متشابكة حول قينقاع يسودها حزم صارم . ويعلوها صمت رهيب ، وترمقها عيون من كوى « ٢ » اليهود نافذة زائغة ، وتدق بين يديها قلوب دافقة واجفة وتحوم فوقها اشباح مزعجة راجفة .

---

(١) جمع زرد وهو ما يلبس فى الحرب

(٢) جمع كوة وهى النافذة

خمسة عشر يوما وهذه الدائرة البشرية قائمة بين اليهود وما يحتاجون من ميرة وذخيرة ، يقتاتون باللقم والتمرات ، ويتبلغون بالثمالة والصبابات ، وينقبون عن مخرج من هذا الجحيم ، حتى شام المسلمون يوما رايات بيضاء ترفرف على منازل اليهود شارة العجز وعلامة التسليم .

فسرت فى المسلمين نشوة الفرح ، ومحت آية البشر سطور الصمت والصرامة ، ثم عاد كل ذلك اليهم على أثر ماهمس به عمر إلى رؤساء الفرق والالوية ، فراح كل يشحذ سيفه من جديد ، أو يلمس شفرته فى رفق كأنه يوقظها للكفاح .

واسترعى نظر المسلمين عن بعد ، صوت رجل سامق الطلعة رفاف الثياب ، يجر نصف عباءته على الارض ، يسير مسرعا فى فزع ، ويشير بيده صوب رسول الله ويصيح .

على رسلك يا محمد ... على رسلك يا أبا القاسم ..

فتهامس المسلمون وسمع صوت أحدهم وهو يقول .

هذا حليفهم وحليف المسلمين عبد الله بن ابى بن سلول .

ثم جاء فوقف دون رسول الله مبهور الانفاس منتفخ الانف ممتقع الوجه ، وقال يامحمد احسن فى موالى «١»

فلم يظفر من النبى بجواب ، فكرر عليه الطلب فاعرض عنه النبى وشاح بوجهه متشاغلا بحديث مع صاحبه أبى بكر ، فادخل ابن سلول يده فى جيب درع النبى وضغط على أسنانه تئز من الغيظ وجذب رسول الله اليه فظهرت علامات الغضب على وجه رسول الله فقال له

«١» بتشديد الياء لانهم كانوا حلفاءه

أرسلنى ...

فلم يرسله ابن سلول وراح يحملق فى عين النبى متقلص الوجه، محتقن الدم ، باوز الاسنان . فقال له النبى مرة أخرى أرسلنى ويحك . .

ابن سلول — والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى .. اربعمائة حاسر (١) وثلاثمائة دارع قد منعونى من الاحمر والاسود تريدان تحصدهم من غداة واحدة؟! انى والله امرؤ ، اخشى الدوائر وأنهم موالي ومو الى صاحبك عبادة بن الصامت ، فقزع عبادة الى النبي وقال :

أتولى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم (٢) فسقط فى يد ابن سلول وازداد غيظا بما سمع يقطع عليه حبل الوقيعة التى أرادها من قولته حتى سمع لأسنانه صريرا.

عاد النبى إلى سكينته يفكر فى أمر هذا الرجل ولما يزل له بعض السلطان على يهود ومشركى يثرب ، من الاوس والخزرج، أيهادنه حتى يستل منه بقية سلطانه ، أم يحاربه فتنضم جماعته إلى بنى قينقاع وقد يضخم أمره ويستفحل شأنه فتخلق فى يثرب دولة أخرى شوكة فى ظهر المسلمين ، ولكنه إذا هادنه ، فماذا يكون المصير لبنى قينقاع بعد ان تمردوا عليه مرات وأتوا بفاحشتهم المنكرة مع هذه المسلمة .

هذا ما كان يدور بخلد النبى صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن سلول

« ١ » بلا درع

« ٢ » وفيه وفى عبد الله بن أبى بن سلول نزلت آية « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم . الآية »

جالس على الارض يدور برأسه تحقيق أمنيته في العفو عن حلفائه اليهود، فيجرى الدم فى وجهه مرحا وسرورا، ثم يعاوده الخوف من الرفض بما يحمل من خيبة ، فيمتقع وجهه، ويجف ريقه، ويدعى له بالماء فيدخله فمه ثم لا يسيغه ،جزعا فيمجه بجواره . مستكرها له .

وكانت ساعة حرجه فاصلة يقرر فيها مصير قبيلة بأسرها قد نيفت على السبعمائة محارب ،يتيتم بعدهم أطفالهم وتترمل نساؤهم ، ويفقد بعدها حليفهم عبد الله بن سلول آخر سهم من هيبته وكرامته .

واستفاق عبد الله بن سلول على صوت النبي يأمر بالعفو ، عن بنى قينقاع. على أن يجلوا عن يثرب تاركين مالهم من ذهب وثروة، على أنه أراد أن يتصل برسول الله بعد أن اطمأن على حياة حلفائه ليستصفحه عنهم فى أمر الجلاء عن يثرب ، فوقف دونه عمر فأغلظ لعمر القول فضربه عمر ضربة شج لها رأسه ، فعاد إلى قومه وحلفائه والدم يخضب وجهه إثارة لهم. ولكن واحدا منهم لم يتحرك له ولم يثر لجراحه رغبا من المسلمين.

* * *

مالت الشمس صوب الغروب تودع جيشا ضخما يجر أقدامه صوب الشام فى مأتم حزين . هذا شيخ يرتطم بصخرة فيهتز ضعفا ، ثم يقع متأوها . وهذا طفل انهكه السير وأمضه فراح يتباطأ وهو يعرك عينه باكيا من الاعياء. فتسيل له نفس أمه حزنا وشفقة، ثم تهوى اليه فتحمله على ذراعها الثانى قبالة أخيه الرضيع. وهذا رأس العائلة وعمادها يعانى مرارة السير تحت أثقال المتاع ،ويزيد فى آلامه ومرارته ما يرى عليه زوجه وأولاده وأباه وأمه ، لاهثين من الضنا والشقاء ، ويحز فى كبده

ما خلف من ثروات كان يتمنى ان تأكلها النيران، أو تدفن فى قرار البحر دون أن يستولى عليها المسلمون الذين دخلوا (يثرب) ضيوفا فاستحالوا فيها سادة وحكاما، ثم انقلبوا قساة مستعمرين .

هذا ما كانت تتحدث به عين عبد الله بن كعب دون أن ينبس ببنت شفة، ثم وقف ووقف معه الجميع تحت سحابة من التراب الثائر ثم أرسل نظره مع غروب الشمس إلى يثرب أودعها كلما بنفسه من أسى وحنان.

ثم سرح نظره فيما حوله من رسوم الألم واطلال الحزن، ثم نظر إلى حليفه عبد الله بن سلول مطأطىء الرأس جازع النفس مكتئب الفؤاد مطرقا جامدا، كأنه قطعة من الصخر، فالتقى نظره بنظره وقد عقد الموقف لسانهما، ولم تكن الاشهقة طويلة ارتفع لها صدر بن كعب، ثم أرسلها زفرة حارة كأنها زفير بركان ثائر، ثم عالج لسانه وغالبه حتى استطاع أن يقول له حين وداعه .

والله لا نقوم ببلد يشج فيه رأسك يابن سلول وأن كل ما تركناه فهو دونك ثم تصاعدا إلى غير لقاء .

— ٤ —

من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه
محمد رسول الله

وجلسوا دون البئر يتسامرون تارة ، وينظرون تارة أخرى إلى أهل يثرب ، وقد غادروا منازلهم يستقبلون نسمات الليل الندية وحدانا ومثنى وقد عقد الحرور عليهم لسانهم ، وألبستهم الوحشة ثوب السكينة والهدوء ، فكانوا كأنهم أشباح ضالة فى الصحراء ، او أطياف هائمة فى الفضاء

واسترعى انتباه المتسامرين صمت سالم ابن عمير ، لا يشارك جلساءه أطراف الحديث ، ولا يبدى ملاحظاته على ما يسمع أو يرى ، ولا يفتأ ينظر إلى مواقع النجوم ، كأنه يعدها أو يحتسب بها وقتا معيناً . ثم يعود فينحنى على نفسه ويلامس شفرة سيفه فى حذر وترفق ، ثم يرفع رأسه ويحرك لسانه بكلمات عميقة خافتة فباغته عمير صاحبه قائلا :

ويحك ياسالم ! ! مالك الليلة قد لذت بالصمت كأن شأنا خطراً قد أهمك ؟!

فنظر سالم إلى محدثه نظرة حادة حائرة ، ثم أراد أن يلوذ بصمته مرة

اخرى ، لولا أن استقبله صوت صاحبه محتداً .

تحدث ياهذا فان شأنك شأن الجميع .

أصوات — إى وربى

سالم بن عمير — لاخطووة ولا هموم . ولكنها ذكريات (بدر) تطوف صورها برأسى بين الحين والحين .

عميرة — بدر ؟ ! كأن بدراً كانت بالأمس فقط ! ! لقد عفى الزمن على موتاها وهضم (القليب) صرعاها ، وأمسينا من قريش على باب ملحمة جديدة .

سهيل — متأوهاً — إن قريشاً لأشرف فى خصومتها للاسلام من هؤلاء اليهود ، أكرمنا جيرتهم . واحترمنا عقيدتهم وأنمينا ثروتهم ولما تزل دسائسهم تألب علينا القبائل وتثير علينا حلفاءنا . وهؤلاء حلفاؤهم من المشركين مافتئت ألسنتهم تنشر قيلة السوء فينا ، حتى ذهبت بأشعارهم وتقولاتهم الركبان . تشوه من جمال الاسلام وتنال من رسوله عليه السلام .

فشهق سالم بن عمير شهقة طويلة ثم أرسلها زفرة حارة ظن جلساؤه بعدها أنها غطاء مافى صدره من هموم وأسرار ، فشخصوا إليه يستمعون فى لهف ماسيتبع ذلك ، ولكن مضت الثوانى والدقائق — وأنفاسهم محبوسة وأحاسيسهم مرهفة — قبل أن يبوح بشىء . فنظر بعضهم إلى بعض فى تفحص واستراية ، ثم سمع بعد ذلك صوت فى نهاية المجلس يقول :

لابد أن يكون الخطب جللا

سهيل ـ وما الحيلة وقد حاولنا جاهدين ان نتعرف خطبه او نخفف كربته فلم نفز منه بطائل .

فأخذ عميرة يجمع أطراف إزاره استعدادا للعود الى منزله وهو يقول — يرعى الله سالما ويكلؤه

سهيل — اذن فخذ الرفيق قبل الطريق فان الليل قد تصرم أكثره

فهد — خذونا نى معكم فانى مشوق الى ام سعيد !!. (١)

أصوات ـ ضاحكة ـ سويا ان شاء الله

وإذ ذاك قام كل من فى المجلس إلا سالم بن عمير الذى ظل فى مكانه مطرقا صامتا مأخوذ الذهن كأن لم يحدث حوله ما يستحق الالتفات

ثم اتجهوا الى منازلهم في يثرب متئدين صامتين ، كأن كلا منهم يسأل نفسه عن هذا السر الغامض الذى تنطوى عليه نفس سالم بن عمير الا يرضى بالبوح به أو التلميح اليه، فقطع عليهم صمتهم سهيل بن فهر قائلا

ـ اكبر الظن أن عميرا يعتزم الليلة خطبا جسيما ولقد كنت اقربكم اليه ولقد سمعته يردد زافرا (من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه) كان يقولها ثم يسكت ، ثم يقول نعم فاقتلوه وحلفاءه معه

فقاطعه عميرة قائلا

والله انه لحديث رسول الله سمعته فى ملأ من الناس ، فلعله تأثر به وأخذ على عاتقه ما أخذ مغتالى كعب بن الاشرف وأبى رافع اليهوديين على أنفسهم ، من خلاص المسلمين من دسائسهم والسنتهم الحداد .

---

(١) يقصد زوجته

عميرة — ولقد رأيته بالأمس يشحذ من سيفه ولقد شمت (١) الليلة شفرته وكأنها أنياب صل (٢) عاتيه ، فضحك «سهيل» ضحكة رددتها أصداء الليل وقال :

كأننا سنسمع غدا عن مصرع عير (٣) جديد .

عميرة — إذا ذهب عير فعير فى الرباط

فهر — ادفنوا أمره فى احشائكم وانظروا ماذا ينفرج عنه نور الصباح ، لعل مانوخيناه حدس لايواقع دخيلته

* * *

وكان السائر بالقرب من حى بنى عوف يسمع صخبا ونعيبا ، وبكاء ونحيبا . فاذا مادنا من الحى استقبلته الجلبة والضوضاء ، بالسوق والمناكب ، يحلق على الجميع وجوم وفزع . ويعروهم ذعر وجزع . ويتخللهم تلفت وهلع . ثم سكنت الضوضاء فجأة على صوت عملاق عريض المنكبين مرسل الذؤابتين (٤) يتحدث إلى الناس مبهورا جاحظ العينين . ويقول :

لئن كان فى العمر بقية لننتقمن من قاتل أبى عفك شاعر بنى عوف وسيدها المطاع . وليعلمن نبأه بعد حين .

* * *

كانت الساعة ظهرا والقيظ لافحا . والناس تتداعى على صوت

---

(١) رأيته (٢) ثعبان (٣) بفتح فسكون «حمار» (٤) ضفيرتين من الشعر يرسلها شجعان العرب وسادتهم على الاكتاف .

حويصة بن مسعود يأخذ بتلابيب اخيه محيصة الصغير، ويتلاحى معه في عنف وشدة، ومحيصة لا يرد عن نفسه عادية أخيه (١) ولا يحاول الخلاص منه كولدبار وقف دون أبيه الهرم يؤنبه ويؤدبه في قوة وصرامة ... قطع سعال الكبر على حويصة تلاحيه، وان لم يرفع يده من تلابيبه ليستأنف المشادة من جديد، حتى إذا سكن عنه سعاله عاد يقول له :

كأنكم يا أصحاب محمد لا تريدون أن يبقى على ظهرها سواكم وصاحبكم، بالأمس اغتلتم كعب بن الاشرف ثم أبا رافع اليهوديين، ثم أبا عفك، ثم سمحت لكم أريحيتكم أن تقتلوا عصماء بنت مروان لمجرد انها نالت من صاحبكم في شعرها قدحا وهجاء!! ولم يرحم قاتلها عمرو بن عوف — ذلك الاعمى (٢) — عليها أولادها الصغار يرضعون ثديها إذ ذاك، فنحاهم عنها وأدخل سيفه في صدرها حتى نفذ إلى ظهرها. ثم يتحدى بعد ذلك أهلها حين سألوه عن جريمته فيقول لهم (نعم !! فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون. فوالذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت. لضربتكم بسيفي حتى أقتلكم)

ثم عاود حويصة السعال مرة أخرى، ولما تزل يده ترتجف في مخنق أخيه، ثم استراح قليلا وراح يقول وقد أجهده الاعياء :

وأخيراً يا ابن مسعود تعتدي أنت علي ابن شبيغة اليهودي يجاورنا

---

(١) أخوه الأكبر على الرغم من اسلام محيصة وكفر حويصة إذ ذاك (٢) لم يكن أعمى ولكنه كان ضعيف البصر وانما وصفه بذلك مبالغة في الشتم والتحقير

ويلابسنا ويقاسمنا شر الحياة ونعماها

ثم اخذ صدره يرتفع وينخفض من شدة الانهماك . فمد محيصة يده يخلص بها يد أخيه من تلابيبه ليريح ويستريح ، دون أن يؤذيه أو يهينه احتراما لوقاره وشيخوخته ، فثار حويصة فى وجهه ثورة الاسد الهرم ديس عرينه ، فجمع كل قوته وغضب غضبة ترنح لها عوده . وتراخت يده فأدرك الأرض بآخر انفاسه . فوقف أخوه فوق رأسه مطرقا متأثرا لضعفه ، وحانقا على صخبه ومشادته فيما لا يؤمن به ، ثم سمعه يقول فى رعشة المرتجف وهذيان المحموم (من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه) هكذا يحرضهم صاحبهم محمد ، على ازهاق أرواح جيراننا وحلفائنا ! ! ثم ضحك ضحكة هازئة ساخرة ، فبلغ حنق محيصة على أخيه غايته ولم يستطع الاصطبار عليه بعد ذلك فرد عليه محتدا وقال :

صهن ياهذا .. والا . .

فعادت القوة إلى الرجل من جديد عزة واباء ، وجحظت عينه ، فى وجه أخيه وقال . . والا ..

والا ؟ ! والا ماذا ؟ تحـــدث يا ابن أمى لعلك تريد أن تقول والا قتلتك . ولا غرابة فى ذلك . فان الذين قتلوا امرأة بين أولادها الصغـــار بالأمس ، لا يتورعون عن قتل شـيخ تقدمت به السن وكساه المشيب . .

محيصة — انها مصارع السفهاء يولغون فى أعراضنا ويرسلون الشعر قحة وسوءا فى نسائنا ، ويخمشون الجراح الجانة فى خصومنا ، ويؤلبون

علينا اعداءنا، ويثيرونها شعواء ، تذهب فيها الارواح وتراق الدماء ، فالقتل أقل جزاء لهؤلاء الادنياء .

حويصة — هامداً — ولكن . .

ثم خنقته الدموع فلم يستطع أن يكمل كلامه، فسكت هنيهة ثم عاد إلى معالجة الحديث أكثر هموداً مما كان وقال :

. . ولكن ابن شبينة جار وفى كريم . . والله لرب شحم فى بطنك من ماله . .

محيصة — والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك

فاستند حويصة على راحته مرة أخرى ، وشخص إلى أخيه مبهوراً وقال :

والله لو أمرك بقتلى لقلتنى ؟!

محيصة — نعم والله لو أمرنى بضرب عنقك لضربتها .

حويصة . . والله ان دينا بلغ بك كل هذا لعجب (١)

محيصة — هكذا والله يا ابن أمي ثم أنشد يقول :

يلوم ابن امى لو أمرت بقتله ... لطبقت زفراه بأبيض قاضب

حسام كلون الملح اخلص صقله ... متى ماأصوبه فليس بكاذب

وماسرنى أنى قتلتك طائعا ... وان لنا مابين بصرى ومأرب

---

(١) وهنا بدأ الاسلام يدخل قلبه تأثراً بايمان أخيه حتى أسلم بعد ذلك .

الغرار

لما هزمت قريش فى بدر وطاحت ببعض أولاد أبى سفيان وأصهاره ، نذر ألا يقرب فراشه ، ولا يغتسل بماء ، ولا يدهن بطيب ولا يهذهب من شعره - حتى يغزو محمدا فى حجر يثرب

ثم رأى أنه سيمر به وقت طول يستبد به حنينه إلى فراشه ويطول فيه شعره ويبنتن ريحه - قبل أن يوفى بنذره ، فسافر ليلا إلى يثرب واشعل النار فى نخيل الضواحى زاعما أن هذا يحله من نذره وفى هذه الصورة ما يوضح منزلة من منازل ابى سفيان فى جاهليته

صدى طرق على الباب يسرى إلى أذنه هامسا، لايكاد يوقظ نائما ولا ناعسا . ثم ارتفع الطرق قليلا فى دأب والحاح ، فمزق من نسيج نومه وأمسى شبه حالم تتجاذبه حبال اليقظة والمنام ، ثم زاد الصدى فى أذنه فرفع رأسه قليلا من فوق الوسادة يتبين الطرق أحقيقة يقظة أم طنين أحلام : فأدرك أن هناك طارقا فتثاءب وتمطى ومسح عن عينيه آثار النعاس ، ثم نهض مندفعا صوب الباب ، فطافت بخاطره صور سريعة لتلك الاغتيالات الشنيعة ، تقع فى جوف الليل على خصوم المسلمين ، فوقف فجأة يرتجف من وقع هذه الخواطر فى نفسه ثم صاح منزعجا ،

— من بالباب ؟ ؟

— أبو سفيان بن حرب .

— ابن حرب ؟ ! ابن حرب بالحجاز ، وأين نحن منه الآن وأين هو منا ؟ !

قال هذا حيى بن اخطب فى سرعة الخائف ، ورعشة المرتعد ، ولكنه عاد فذكر ان صوته اشبه مايكون بصوت ابي سفيان ، فأخذ يقدم رجله تلبية لاريحيته ، ويؤخر الاخرى حرصا على حياته ، ثم سار صوب الباب يسلى نفسه بالحديث ويردد فى لهجة مضطربة أن كان ابن حرب فيا مرحبا به وأهلا .

فسمع أثناء ذلك من يقول له فى خفوت افتح ياهذا ! فالكريم لا يرد عن بابه فى مثل هذه الساعة ، فأثارت هذه الكلمة فيه أريحيته . وترجح لديه من جرسها انه صوت أبى سفيان .

فتح حيي بابه . فسقط نور المصباح على وجه تختفي تقاسيمه في لبد من الشعر كثيف، حتى لم يدر حيي أهو أمام حيوان أو انسان ، لولا أصابع تمتد اليه مصافحة ، وعينان تشعان من خلف هذا كله بالجمال وصوت قوى يقول :

— عم مساء يا ابن أخطب

— مرحبا بأبي سفيان وأهلا . وناقة وبحلا ، ومستناخا سهلا . خيرا .. ما وراءك يا ابن العم ؟

أبو سفيان — مائتا راكب في عدتهم وسلاحهم يريدون غزو محمد واصحابه في حجر يثرب (١)

حيي — شاهقا حجر يثرب؟! دعني وأبيك من حديث محمد وغزوه . عسانا ننجو بانفسنا منه ومن أصحابه ، يغتالون كل يوم سريا من سراة القوم

ابو سفيان — وكيف ترد عن بابك من استجار بك

حي — لان الحرب متى وضعت أوزارها نجوتم بأنفسكم إلى الحجاز وخلفتم ولائدها لسكان يثرب لظا وجحيما .

صدمة قوية أطرق ابو سفيان برأسه على إثرها طويلا حتى ظن حي أن فكرة الغزو قد ماتت في خلد صاحبها ولكن أبا سفيان عاد فرفع رأسه فالتقى نظره بنظر محدثه فرأى كل منهما صلابة الاصرار في عين صاحبه على ما يرى ، فغادر منزل صاحبه غاضبا .

* * *

---

(١) كان أبو سفيان قد نذر بعد هزيمة قريش في (بدر) أن لا يمس فراشه ولا يغتسل بماء وألا يدهن بطيب حتى يغزو محمدا في يثرب .

وكان المـــار خارج يثرب تستقبل أذنه أول ما تستقبل أزيز . انياب الابل تجتر فى جرس غـير منتظم ، ويرى فى اعتكار الليل اشباحا ملثمة تسير هنـا وتنتقل هناك فى غـير جلبة ولا ضوضاء ، والـكل شاخص صوب يثرب كأنه على موعد ولقاء ، ثم كانت همهمة وتغامز ، وتواثب وتداخل واقعاء ، ظهر على أثرها رجلان تسبقهما رائحة الخمر ، قد فاوتت الطبيعة بين قامتيهما ، وفرقت بين خطاهما . أحدهما طويل القامة عريض المنـكبين ، واسع الخطا والثانى ربعة لايشتـكى منه قصر ولا طول ، يحاول جاهـدا ان يدرك صاحبه فى مشيته ، فلا يكاد يلمس غايته حتى تـكون قد غادرته خطى صاحبـه ، يتصارع فى رأسه بخـار الخمر وخمر الأمل جاء يحققه .

ثم سمع أحدهم يقول لصاحبه :

— إذا كان القادم أبا سفيان بن حرب . فمن عسى يكون هـــذا الذى معه ؟

— إنى أعرف فى مثل مشيته (سلام بن مشكم) سيد بنى النضير وكنزهم . وعلى أى شأن فما قريب تنفرج ، ومالبث القوم هنيهة ، حتى وافاهم أبو سـفيان وصاحبه ، ثم جمع رؤساء القوم وأسر لهم بالخطة المرسومة ، ثم سبقهم أبو سفيان إلى الطريق الموصل إلى مكة انتظارا لاصحابه واستعدادا للفرار

* * *

واستيقظت ضواحى يثرب عند السحر على صخب واستغاثة وجلبة وضوضاء ، فألفوا ليلها نهارا ، تحت اضواء النيران تشتعل فى رؤوس

النخيل، فكأنها عن بعد صفوف المشاعل، وعن قرب أفواه البراكين قد انتظم الناس حولها عقودا وسلاسل. ينظرون اليها بعيون جازعة واستسلام خاشع. كانهم عباد نيران. فى أرض كسرى أنوشروان. ومن خلفهم جماعة تغدو بسرعة وتروح. هذا يحمل طفلا ويقود عجوزا. وذاك يرفع متاعا وينقذ هشيما. وثالث يولول ويصيح وا أبتاه، ورابع واخطباه فيك ياأخاه، بينما كان حرس المسلمين اذ ذاك فى طريقه إلى مكة كالريح المرسلة، يثير التراب بسرعته. ويهز النخيل بقوته. ويحاكى النعامة فى خفتها: وكلما رأى الجرس ظلاما قاتما. أو سوادا منعقدا، ظنوه جيش أبي سفيان، فتئز بالغيظ اسنانهم. وتتجعد به جباههم وتلهب آباط الابل سياطهم، يستحثونها اسعافا فى السير، وايغالا فى نهب الطريق؛ حتى إذا لم يعثروا على شىء سأل رسول الله عن طليعة جيشه فيقال له لم تعد بعد. فينحنى على نفسه يناجي ربه ويطلب اليه العون والنصير، وناقته ترتفع به وتنخفض فى حركة منتظمة كأنها أم رؤوم تهدهد ولدها الوحيد.

ثم وقف حرس المسلمين فجأة على رؤية أياد ترتفع فى الهواء إشارة للوقوف، فأخذ كل بزمام ناقته إلى الوراء بيد، وأخذ يستل سيفه بالاخرى، ظنا منهم أنه قد حان وقت النزال ولكن ما أشد حزنهم حين علموا من رجال الطليعة، أنهم لم يقفوا لجيش ابي سفيان على أثر، ولعله ومن معه قد واقع مكة الان اودنوا منها، ولا جدوى ولا نفع من متابعتهم الى الحجاز فى مثل هذا الجيش الصغير.

* *
*

جلس القوم في شبه مأتم وقد أسلم كل رأسه بيديه تمر بها خواطر الماضي سريعة حزينة، ويستقبل فيها أشباح المستقبل مخيفة محزنة حتى دخل عليهم صفوان بين أمية وابتدرهم بالسلام

فأفاقوا من تأملاتهم، وراح كل ينظر إلى الآخر كأن لم يره من قبل لشدة ما كانوا فيه من تيه وذهول ثم تحدث أحدهم قائلا

— الى متى الطل في رحلة الشام والتسويف في ترحيلها، ورؤوس أموالنا تتناقص كل يوم في أيدينا

أبو عزيز بن عمير — وكيف يكون الرحيل إلى الشام وهذا محمد في طريقنا اليه! وزاد ما بيننا سوءا حادث أبي سفيان الاخير أحرق لهم نخيلهم (بالعريض) (١) وقتل رجلين من أصحابه في حقلهم

صفوان — ولكن أبا سفيان قد دفع ثمن كل ذلك سويقا القاه المسلمين على طول الطريق، ولعلهم شغلوا بجمعه وطمعوا في فضله

أبو عزيز — وهل كان السويق ثمنا لما صنع، أم ثمنا لهراشه أن يهجر ودمه أن يهدر؟!

فتضاحك القوم ومال بعضهم على بعض ثم قال أمية بن خلف.

والله لو طاحت رؤوس من كانوا مع ابي سفيان جميعا لكان ذلك ثمنا زهيدا في سبيل عودة أبي سفيان الى آدمينه من جديد!! لقد رحل هذا المخلوق اشعث أغبر منتن الجثة، كأنه قرد نجوز فعاد اليوم الينا بشرا سويا.

(١) مكان من أطراف يثرب

ضحك .

ابو سفيان — والله ان أنس لا أنسى صنيع (سلام بن مشكم) بعد ان خذلنى حيى بن اخطب فى رعدة وفزع ، ثم سكت هنيهة كأنه يستعرض ماضيه معه ثم انشد يقول :

ولان تخيرت المدينة واحدا ... لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقانى فروانى كميتا(١) مدامة ... على عجل منى سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت ولم أكن ... لافرحه ابشر بعز ومغنم

ابو عزيز — وأى مغنم لقريش الآن وقد سدت على قوافلها طريق الشام .

طالب — وأى مغنم أعز علينا من إبى سفيان في مثل راحته وفيض سعادته ، تحلل من قسمه وتجرد من ادرانه ، وتمشت فيه نشوة لمنى ، وزارته للنيلة موجة الشباب وقد سلخ من عمره مانعلمون .

أصوات — ضاحكة مازحة .

زمعه — دعونا من ابى سفيان ونشوته ، وراحته وسعادته واسلكوا بقوافلنا طريق العراق ولادلكم على رجل يسلك بكم هذا الطريق لوسلكها معصوب العين لاهتدى .

صفوان — من هو فحاجتنا إلى الماء قليلة ، فانما نحن شاتون .

زمعة — فرات بن حيان .

ابو سفيان — اذن فاستدعوه حالا واستأجروه .

* * *

(١) خمرا .

رجل يدخل المسجد منتفش الشعر مستطيله بدت على ثيابه آثار السفر ثم وقف عند الباب يتلفت عن يمين وشمال ، حتى إذا وقع نظره على رسول الله عمد صوبه يتخطى رقاب الجالسين اليه، والبعض فى دهشة لهذه الجرأة ، والبعض الآخر يرى أنه لابد أن هناك مايدعو إلى ذلك ثم دنا الاعرابي من أذن النبي وهمس اليه بكلمات وانصرف ثم انسحب رسول الله على أثر ذلك إلى بيته واستدعى اليه زيد بن حارثه على عجل .

* * *

استيقظ أهل يثرب يوما على صدى تكبير راعد ، رددته اجواز الفضاء واهاريج داوية ترجعها اصداء الصحراء . واطفال تسير بسرعة أمام الركب فتثير امامه الغبار فيكاد يختفى تحته ، لولا رايات بيضاء تداعبها تموجات الهواء . واعواد من السعف تميد عن يمين وشمال فى حواشى الفضاء . وبرز من هؤلاء جميعا زيد بن حارثة على ناقة شهباء يطفح وجهه بالبشر . ويفيض بالسعادة والهناء .

وفى ساحة المسجد وضع زيد بن حارثة بين يدى النبى مغانمه من عير قريش فى طريقها إلى العراق وقد بلغت ١٠٠،٠٠٠ من الدراهم فقسم رسول الله اربعة اخماسها بين افراد السرية بالسوية، واحتفظ بالخمس الباقى لنفسه ، ثم جىء بفرات بن حيان دليل قريش الى العراق موثوقا بالحبال فقدمه زيد الى رسول الله وقال :

— هذا كل من بقى من قريش مع العير . اما الباقون فقد ولوا

مدبرين لا يلوون على شيء تاركين الرحل وما فيه .

وافترت شفة فرات بن حيان عن شهادة التوحيد لله ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم . فعفى عنه النبي واطلق سراحه .

فعرف القوم عند ذلك سر الاعرابي الذى جاء فهمس فى اذن النبي . وسر غياب زيد بن حارثة ردحا من الزمن بعد استدعاء النبي له .

تذييل

بالفصل المتقدم تنتهى الحلقه الثالثة من سلسلة (صور اسلامية) ولعل بين الحلقة الثانية والثالثة - من طويل الزمن - ما يدعو إلى التساؤل عن سبب التأخير في إخراج هذه الحلقة ، رغم تهافت القراء عليها ، ولعل هؤلاء المتسائلين لم ينسوا بعد ظروف الحرب التى ما تزال البلاد تعانى آثارها ، بل وتعانى آثارها اليوم بحالة أفدح مما كانت عليه أيام الحرب .

ولقد كان لقلة الورق أو غلائه فى السوق الحرة ، أثره الشديد على الحركة الفكرية أيام الحرب ، وما أن وضعت الحرب أوزارها . حتى انطلقت الأفكار تجرى على الأوراق أدبا وعلما وثقافة ، نفضت المطابع واتخمت بأطنان من الورق تنتظر دورها فى الدخول إلى المطبعة ، ووقفت (صور اسلامية) تنتظر دورها فى تواضع صاحبة الألف نسخة أو نزيد ، إزاء أصحاب الألوف الكثيرة

وماكاد نصفها يتمتع بنور الوجود حتى امتدت الأيدي بالسرقة إلى الورق الأبيض وثلث الورق المطبوع . فلم يقدر لهذا الأبيض أن يطبع . ولا لهذا المطبوع أن يطالع وجوه القراء الأعزاء ، ويحظي بإضاءهم ، بل راحت تسعد الأفواه باقراص الطعمية والبلح الامهات !! ولو أن اللص - يتوب الله عليه - ترك نسخة واحدة مما سرق - لهان الخطب ، وخف المصاب ببضعة جنيهات يشترى بها ورق أبيض ، ولكنه استأصل بعض الملازم المطبوعة استئصالا . حتى أصبح من

العسير كتابة ما يمكن أن يقع موقع ملزمة بالضبط ، سيما بعد أن مزقت الأصول ، وإذا أمكن فان ذلك سيتم بعد عناء شديد ، ولكن الله الذى يعلم غايتى من كتابة هذه السلسلة ، وضع يدى - بعد يأس - على نسخة مطبوعة داخل مصحف كريم ، فأيقنت أن الله قد قبل وسيلتى لديه وقربنى اليه

* * *

ثم جاء دور الورق الأبيض المفقود وكيف يكون الحصول على مثله حجما ولونا وسمكا ، وأين المال الذى يشترى به وسط هذا الغلاء الكاوى ؟ سيما بعد أن عصرت طليعة الكتاب جيبى عصرا ، وعصرته عصرا

* * *

كتبت إلى أحد الأصدقاء من تجار الورق ورقة أطلب اليه فيها كمية من الورق حددتها كما وكيفا . واعدا اياه باداء الثمن فى نهاية الشهر ، أملا فى التوفق إلى السداد ، فسارع الرجل - يكرمه الله - بارسال الورق ، ثم قادته صوالحه فى أوربا فلبى النداء عاجلا ، فكان سفره فسحة جديدة وهبة سماوية آخرى لمد أجل السداد وما علمت بحضوره ، حتى بادرت إلى لقائه لأقدم له حقه مشكورا مأجورا ، وإذا بى أمام وجه ضامر حازم يهتز بالرفض شمالا وجنوبا ، فظننت لأول وهلة أن الرفض منصب على الحمراء ذات المآذن الجميلة !! لعلها أقل من المطلوب ، ثم ظهر أن الرفض منصب على استلام الثمن بأسره ،

لأنه علم بأمر سرقة الورق وما أقاسيه فى سبيل اتمام الكتاب، ثم شفع ذلك بايمان لاحيلة لى فى احنائها

لقد عرتنى دهشة فما عودنا تجار العصر الحديث مثل هذا التقدير والكرم، سيما من تاجر حديث ما زال ثراؤه يحبو نحو المصارف، ولكن إذا علم الناس أن الاستاذ محمد حلمى المنياوى فذ فى كل شىء لهدأ تساؤلهم عن سبب هذا التصرف الغريب، فلقد كان - فى احدى مؤسسات النشر موظفا فذا، ثم غادرها متهما فذا، ثم عاد اليه اعتباره بريئا فذا، ثم انه كان فقيرا فذا ثم أضحي غنيا فذا

وأؤكد أنه لو سارت الأمور على النحو الذى اصطلحت عليه مع اعصاب الحاج حلمي المنياوي لتغيرت أوضاع الدنيا ولخلقت الدنيا فى يوم واحد بدل خلقها في ستة ايام

* * *

والحصول على ورق هذا الكتاب فى ظروف الحرب. وبطء الطبع وسرقة الورق الأبيض والمطبوع، والحصول على صورة من ملزمة مفقودة ثم الحصول على الورق بالمجان على الرغم منى

كل هذا يدل على مايحمل صاحب هذا الكتاب من نوايا صادقة، وما سيقوم به الكتاب من شأن فى تسهيل قراءة السيرة المحمدية، وفى هذا التسهيل ما فيه من العون على ثقافة بعض ابناء الجيل الجديد تثقيفا يقربنا إلى مثلنا الاسلامية العليا

وما دمنا فى صدد شكر من ساهموا في انجاز هذا الكتاب فلا أنس شكر فضيلة الشيخ عبد الرحمن عبد المتعال المصحح بالمصرى لمقام

به من المعونة فى تصحيح اكثر صفحات هذا الكتاب ، كما نشكر الشاعر الحساس الأستاذ خالد الجرنوسى لمعونته الأدبية فى تصوير بعض المواقف التاريخية شعرا يحمل مسحة ذياك العهد وتقاليده ، وكذلك الأستاذ المرصفى الرسام والخطاط بجريدة المصرى لما قامت به ريشته من تتويج فصول الكتاب بعنوانائه الجميلة

* * *

هذا وارجو الله توفيقا وعونا على إخراج بقية السلاسل ، حتى تكون اهلا لثقة من كتبوا لنا من جميع انحاء العالم العربى والاسلامى تشجيعا بريئا كريما ضاق المقام عن نشره ، الا انه ان نم شىء فانما ينم عن اتصال اشدان الثقافة بين مصر والعالم الاسلامي ، وعن تجاوب ارواح المسلمين فى انحاء الارض على اختلاف الوانهم ولغاتهم واجناسهم

فاللهم اجعلها خالصة لوجهك الكريم

اعتزار

وقع خلال الطبع بعض اخطاء نحويه ولغويه وفنيه وقد ضاق المقام عن استدراكها فى باب من التصويب لكنها سوف لا تخفى كثيرا على فطنة القارئ وان خفيت فانا نرجو المعزره

فهرس الكتاب

رقم الصفحة	العنوان	الموضوع
٥	مقدمة الجزء الثالث	—
١١	جفنة الدم	مؤامرة قريش لقتل رسول الله
٤٠	اول العهد بيثرب	استقبال رسول الله في المدينة
٥٣	رمز الفداء	نوم علي بن ابي طالب في فراش رسول الله مفتديا رسول الله بنفسه
٦٦	براعم سياسية	التشريع الداخلي لسكان المدينة مسلمين ويهود
٨٥	من افراح النبوة	بناء رسول الله بعائشة وعلي بفاطمه
١٠١	من النار الى النور	نصرانية سلمان الفارسي
١١٣	» » »	فراره بدينه الى القدس
١٢٨	» » »	عمله عند يهودي كعبد ثم اسلامه على يد رسول الله بالمدينه
١٤٠	الله اكبر	الأذان للصلاة
١٥٥	طلائع الحق	مناوشات رسول الله لقوافل قريش وهي في طريقها الى الشام
١٦٥	تقرير المصير	غزوة بدر
١٧٧	» »	قدوم قريش الى بدر

رقم الصفحة	العنوان	الموضوع
١٨٤	» »	بدء المعركة
١٩٣	» »	هزيمة قريش وتحديث رسول الله لقتلاهم
٢٠٢	» »	الخلاف فى امر الاسرى
٢٠٩	مصارع السفهاء	اغتيال شعراء اليهود الذين شوهوا دعوة الاسلام وشهروا برسول الله صلى الله عليه وسلم
٢١٩	» »	قتل ابى رافع اليهودى
٢٢٧	» »	قتل اليهودى الذى كشف عن سوأة مسلمه فى سوق الحلى
٢٣٥	» »	اغتيال ابى عفك وعصماء بنت مروان وابن شبينه
٢٤٢	الفرار	حيلة ابى سفيان المضحكه فى غزو المدينة ليلا ثم فراره الى مكه

طبعت فى دار الطباعة والنشر

لمصر والسودان

١٧ حارة الرويعى بمصر

BP
70
M3x
v.3